الفصل الأوَّل

المُنَاسَبَات الدِّينِيَّة

نعرِضُ ضِمْنَ هذا الفصل خمسة دروس تتعلَّقُ بالمناسبات الدِّينيَّة، وتُبيِّنُ هذه الدُّروس قيمة هذه المناسبات وأهمِّيتها وفضائلها، وما جرىٰ فيها من حوادث وكيفية أخذ العِبرة منها.

obeikandl.com

الدَّرس الأوَّل[1]

السِّراج في مُعْجِزَةِ الإسْرَاءِ والْمِعْرَاجِ

بعد تلاوة مباركة من أحد المُقْرئين للآية الكريمة التَّاليَّة: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]، قال الشَّيخ الجليل مُرَبِّي المُريدين وقُدوة السَّالكين عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسني الشَّريف رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ أشرف الأنبياء والمُرسَلين (صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم)، ربَّنا اشرح لنا صدورنا، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا، وهَبْ لنا من لَدُنك عِلْمًا، وآتنا رحمة مِن عندك، **أمَّا بَعْدُ**:

هذه اللَّيلةُ ليلةُ الإسراء والمعراج الكبرىٰ بالنِّسبة للنَّبيِّ ﷺ وبالنِّسبة لأمَّته أيضًا، وقد ذكر الله جلَّ جلاله هذه المعجزة في القرآن الكريم حيث قال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

وقِصَّةُ الإسراء معروفة ومفهومة، فالإسراءُ يكون ليلًا، والكلمة مأخوذة من سرىٰ يَسْري، أي أنَّ الإنسان عندما ينهض في اللَّيل ويمشي ويسافر نقول: إنَّ فُلانًا سرىٰ ليلًا، أي ذهب وسافر ليلًا، وهنا نتوقَّف عند هذه الكلمة، وهي كلمة سبحان، فكلمة سبحان كلمة تنزيه، فيُنَزِّهُ الله علىٰ ما يقع بعد هذه الكلمة من الأفعال التي سيفعلها الحقُّ ﷻ مع عبده ونبيِّه محمّد ﷺ، ولذا قال الحقُّ ﷻ: «﴿سُبْحَانَ﴾»، فقدَّم التَّنزيه علىٰ الكلام الذي سيقوله بعد كلمة ﴿سُبْحَانَ﴾، وعندما

(1) درس «مُعجِزة الإسْرَاءِ والمِعْراجِ» ألقاه الشيخ الجليل علي تابعي بزاوية «عين مسُّوس» بولاية أمُّ البواقي.

نرىٰ كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ هنا فالتَّسبيح هو التَّنزيه، أي تنزيه الله ﷻ عمَّا لا يليق به من الأقوال والأفعال والصِّفات.

وفي كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ ينطوي الزَّمانُ، وينطوي المكانُ، وتنطوي أفعالُ العبد، ويفنىٰ الإنسانُ تمامًا، ولا يبقىٰ شيئًا، لماذا؟ لأنَّ محمَّدا ﷺ لم يَسْرِ بنفسه، وإنَّما أُسْرِيَ به، لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، ومِن هذا المُنطلق لا يُقاس الإسراء بالزَّمن ولا بالفعل ولا بالمسافات ولا بالمكان، فهذا الإسراء الإلهيُّ بمحمَّد ﷺ لا يُقاس بمقاييس بشرية، ولا بمقاييس كونية لماذا؟ لأنَّ الله ﷻ يُطلق القانون ويُقيِّده، والخَلْقُ يُطلِقون القانون ولا يستطيعون أن يُقيِّدوه.

ولو فَهِمَتْ قُريش أو فهِم حتَّىٰ بعض المسلمين ضِعاف الإيمان الذين ارتدُّوا عن دين الله في قضية الإسراء والمعراج، لو فهموا ما قاله ربُّنا في هذه الكلمة لما أنكروا الإسراء والمعراج، بل يزيدهم إيمانًا ورغبة وتصديقًا، ولكن مع الأسف فالمُشْرِكون الكفرة مآلهم ومصيرهم العِناد، وحتَّىٰ لو عرفوا الحقَّ لرفضوه، وكلُّ مَنْ شارك قريش وأتباعهم في ذلك الإنكار فهو شريك لهم في هذه الحماقة.

ومن طبيعة المعاند من حيث هو حتَّىٰ ولو كان الحقُّ عليه وضِدّه لا يعترف به، وهذه صِفةٌ من صِفات المُشْرِكين، ومن صفات الكافرين، وليستْ من صفات أهل الإيمان. والمؤمن العاقل حيثما يجد الحقَّ يتَّبعه، أي أنَّ الحقَّ لا بدَّ من متابعته، والرُّجوع له فضيلة أينما وُجِد، ولو عند مَنْ هو أقلُّ منَّا سِنًّا، أو أقلُّ مِنَّا درجة في العِلْم، أو أقلُّ منَّا درجة في الطّاعة، أو أقلُّ منَّا درجة في أي أمر، وأينما وُجِد الحقُّ فعلىٰ المؤمن أو المؤمنة أن يتَّبعه، وحيثما وُجِد فعلىٰ العبد أن يَشُدَّ عليه بقوة.

إنَّ الكفَّار والمُشْرِكين قد حجبَ الله ﷻ عقولهم عن فهم قضية الإسراء والمعراج، وهذا طمسٌ إلهيٌّ، لأنّهم كانوا فُصحاء وبُلغاء، وتربوا علىٰ العربية، وهي بالنِّسبة إليهم سليقة فِطرية لم يتعلَّموها عن طريق العِلْم، لا بل هي سليقتهم، أي لغتهم التي يتكلَّمون بها، وهي اللُّغة العربية الفصيحة، ورغم ما وصلوا إليه من البلاغة والفصاحة لم يصلوا إلىٰ فهم هذه الكلمة، والتي هي سبحان، لأنَّهم لو

فهموها ما قاسوا على النَّبيِّ ﷺ الزَّمان، ولا قاسوا عليه المسافات والمكان، لماذا؟ لأنَّ أفعال الحقِّ ﷻ لا تُقاس لا بالزمان ولا بالمكان، فهذا فِعل الحقِّ لا فعل البشر، والزَّمن مخلوق لله، وهل المخلوق يتحكَّم في الخالِق؟ فهذا منطق غير مقبول أبدًا، وهل فعل العبد يُقارن بفعل الحق؟ هذا كلام غير معقول.

لقد فهِم كُفَّار قريش الزَّمان بما يعرفونه من طبيعتهم، ولذا قالوا: لا يمكن لهذا الإنسان أنْ يسريَ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ في ليلة واحدة ويعود، ونحن نضرب أكباد الإبل شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا، وما هو مقياس هؤلاء هنا؟ إنَّ مقياسهم الزَّمن الذي يعرفونه، وهم لا يعرفون أنَّ فعل الله يطوي الزّمن، فقد يجعل الله ﷻ مسافة ألف سنة في أقلِّ من طرفة عين، ولكن عماء قلوب الكفَّار والمعاندين عن معرفة الله هو الذي جعلهم يُنْكِرون قضية الزَّمن وقالوا: لا يمكن لهذه القضية أن تَحْدُثَ، وكيف يحدث ذلك ونحن نضرب أكباد الإبل شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا؟ وكيف يُقْبَل من محمَّد أنَّه يسري من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ ثم يعود قبل الفجر، وقالوا: هذا أمر غير معقول.

والعقول السَّاذجة والفاسدة والمحجوبة -والعياذ بالله- تستعظم هذا، وهذا الأمر ليس بالنِّسبة لمن أنكر هذه المعجزة من كفَّار قريش والمُعاندين فقط، بل لكلِّ من يفهم ذلك، وكما أنَّنا نحن نفهم أفعال الحقِّ، وعندنا هذه التقديرات، لأنَّ الإنسان يُقيِّد أفعال الحقِّ بالزَّمن الذي يعرفه، وبالمكان الذي يعرفه، وبالتَّقديرات النَّفسيَّة الموجودة فيها، وهذا كلام فارغ وليس صحيحًا، لماذا؟ لأن أفعال الحقِّ لا تُقاس بمقاييس البشر، وهو الذي يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، فمثلاً يقول الله تعالىٰ للزّمان انطو لإنسان فيجد نفسه في الوقت ذاته، والنَّاس يرون أن زمنًا قد مضىٰ عليه بدون أن يشعر.

وقد وقعت لبعض الصَّالحين كرامات من نوع طي الزّمان، فيُحكىٰ عن الشَّيخ التّابعي[1] رحمه الله وكان في الجنوب التُّونسي أنَّه جاءه زائر من مدينة الوادي، وبمجرد

(1) هو جدّ والد الشيخ عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسني الشَّريف (رضي الله عنهم). (جامع الكتاب)

أن سلَّم عليه، ولم يزل واقفًا أعطاه الشَّيخ رسالة، وأمره أن يُبلِّغها لأحد المُريدين بمدينة الوادي يُدعىٰ سيِّدي ميلودي، وكان تلميذًا خادمًا للشَّيخ، ومن الذين شُغِفُوا بمحبَّته وبنظْم الأشعار فيه ومدحه، وقد مرض من عينيه وفقد بصره، وقال الشَّيخ لذلك الزَّائر: عليك فورًا بتبليغ هذه الرِّسالة إلىٰ سيِّدي ميلودي، وأخْبِرْه أنَّ الشَّيخ يأمره بأن يضع الرِّسالة علىٰ عينيه ثم يقرأها ويردّ عليها.

وعندما قفل الزَّائر عائدًا من عند الشَّيخ إلىٰ مدينة الوادي أمره أن يلتفت وراءه عندما يصل إلىٰ مكان معين حدَّده له، وطبَّق الزَّائر وصية الشَّيخ حرفيًّا كما أوصاه بها، فوجد نفسه بعد لحظة في مدينة الوادي والمسافة بين الوادي والشَّيخ ما يقارب مائة كيلومتر، ولما وصلت الرِّسالة إلىٰ سيِّدي ميلودي ووضعها علىٰ عينيه ردَّ الله ﷻ عليه بصره حينًا، فردَّ علىٰ رسالة الشَّيخ وأعطاها للزَّائر، وقال له: أخبر الشَّيخ إنِّي قادم عليه لزيارته.

إنَّ هذا أمر عجيب وكرامة باهرة وقعتْ لوليٍّ صالح، فما بالك بالنَّبيِّ ﷺ، وقد جئنا بهذا الشَّاهد علىٰ طيِّ المسافات، فلا ينبغي أن نُقدِّر المسافات الإلهيَّة، أي الأفعال الإلهيَّة بالمسافات الزَّمانيَّة، أو المسافات المكانية، لأنَّ هذا الأمر غير معقول هنا نهائيًا، ولهذا لما قدَّم الله ﷻ كلمة سبحان بالذَّات أراد أنْ يُنزِّه نفسه عن أفعال العباد، وعلىٰ أن تُقاس أفعاله بأفعال العباد، أو أقواله بأقوالهم، أو صفاته بصفاتهم، أو أسماؤه بأسمائه.

إذن كلمة أسرىٰ في الآية الكريمة: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لو فهمها الكفَّار وفهمتها قريش ومن كان حاضرًا مع النَّبيِّ ﷺ لو فهموا بأنَّ الله ﷻ وضَّح الفِكرة، ولم يقل أنَّ النَّبيَّ ﷺ سرىٰ بنفسه، لا بل قال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يعني أنَّ النَّبيَّ أُسْرِي به ولم يَسْرِ بنفسه، ولهذا قلنا لقد انطوىٰ المكان والزَّمان، وانطوت الأفعال البشرية والأقوال البشرية وبقي فعل الحقِّ ﷻ.

وهذا الإسراء وقع علىٰ البُراق، والبُراق هذه دابَّة وجهها كوجه الإنس وبقية أجزائها حيوان، وهذا الحيوان الذي كان يركب عليه الأنبياء أقل من البغل وأكبر

من الحمار، يعني أنها دابَّة ليستْ موجودة في الكون، وهذا أيضًا خرقًا للعادة، والبُراق يضع خُطاه عند لمح بصره (يضع رجليه عند الحدِّ الذي يُدْرِكه بصره) ومعنىٰ هذا أنَّ الأمر لا يمكن أن يقدره الإنسان، ولا يستطيع أن يعملَ له أي حساب، وقد قلنا أنَّه رغم البلاغة والفصاحة التي كانت عند العرب، ولكنَّهم قد أخطئوا الفهم، ولذلك ازدادوا كُفرًا وازدادوا عِنادًا.

وكذلك الشَّأن بالنِّسبة لمن شابههم من ضعفاء الإيمان من المُسْلِمين الذين ارتدُّوا وقالوا: إنَّنا نُصَدِّق محمَّدًا في كلِّ شيء، ولا نُصَدِّقه في كونه يمشي من مكة إلىٰ بيت المقدس، ويقطع مسافة شهر ذهابًا وشهر إيابًا ما بين العِشاء إلىٰ الفجر، فهذا أمر غير معقول، وهذا قولهم في مجرَّد الإسراء، فما بالك في المعراج؟

إذن هذا ردٌّ علىٰ الكفَّار وحجَّة عليهم وعلىٰ المُسْتَشْرِقِين الذين يقولون: إنَّ هذه المعجزة غير صحيحة قياسًا علىٰ الزَّمن، وقياسًا علىٰ المكان، ويقولون: إنَّها غير معقولة، وغير مقبولة، ويزعم المُستشرقون أنَّ معجزة الإسراء والمعراج هي مجرَّد اختراعات اخترعها محمَّد، وقال: كذا وكذا، وهذا لتغليط الشَّباب المُسْلم، لأنَّ أكثر شبابنا يقيس الأمور بالعقل، فيقيس الأمور العقدية بهذا العقل، وعندما يجدها لا تتماشىٰ مع العقل يرفضها ويقول: هذه لا يقبلها عقلي، وينبغي لكلِّ مؤمن ومؤمنة أنْ يَعْلَمَ أنَّه في مجال النُّصوص الشَّرعية إذا ثبت النَّصُّ الشَّرعي في قضية ما، فعلىٰ العاقل أن يسجد ويخشع ويخنع ويخضع ويُكَبِّرَ إجلالاً لعظمة الله، ولا دَخْلَ له في النُّصوص أبدًا، وعلىٰ العاقل أن يأخذ النَّصَّ مُسَلَّمًا، إذ العقل آلة يفهم بها، وليس آلة يُسلِّطها علىٰ النّصوص الشَّرعية، ثمَّ يقول: هذا النَّصُّ لا أقبله، لأنَّ عقلي لا يقبله، لا، لأن هذا خارج عن الإيمان بالغيب، ولذلك قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 1-3].

ومن هم المُتَّقون؟ هم الذين يؤمِنون بالغيب، فأوَّل خصلة عندهم أنَّهم يؤمِنون بالغيب، لأنّه شرط في صِحَّة الإيمان، وعلينا أنْ نؤمن بالغيب، وأنْ نُقِيمَ

الصَّلاة، والإنسان كلُّ شيء غيب عنه، فنحن جالسون هنا وكلُّ العَالَم غيب علينا، ولا نعرف شيئًا عنه، ولا ندري في دقيقة واحدة أو في ثانية واحدة ما يفعل الله بهذا العَالَم وبنا، فهل نعرف ذلك؟ لا، ولا بدَّ علينا من الإيمان بالغيب وإقامة الصَّلاة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإذا فسَّرنا معنىٰ إقامة الصَّلاة قلنا: أي تأديتها علىٰ الوجه المرضي لله، فهذه هي إقامة الصَّلاة التي طلبها الشَّارع، وهذا من باب الظَّاهر.

وأمَّا إذا نظرنا إلىٰ الباب المعنوي، فما معنىٰ إقامة الصَّلاة؟ معناها كأنَّ الحقَّ جلَّ جلاله يقول: آمنوا بالغيب وأقيموا الصَّلاة، أي أقيموا أنفسكم في صلة مع الله لا تنقطع أبدًا، لأنَّ الصَّلاة مأخوذة من الصِّلة أي أنَّها تصل العبد بربِّه، ولا يمكن للعبد أنْ يكون موصولاً بربِّه إلاَّ إذا فني وغاب عن نفسه في هذه الدَّرجة من درجات الكمال، وإذا دخلنا في مقام العبودية فأقول: أنَا عَبْدُ ربِّي، وأشهد أنَّ الله لي ربًّا وإلها ومالِكًا، وربِّي يشهدني بأنَّني عبده ومُلكُه، وله الأمر والفعل والخَلْقُ، ومادام لله الخَلْقُ وله الفِعل والأمر فأنت أين كينونتك؟ وفي أي مكان موجود؟

أنت غير موجود تمامًا، وأنت مِن أفعال الحقِّ، خلقك بفعله وأنت فعله وأمره وخَلْقُه، فأين أنت؟ وأيُّ شيء لك أنت في ذاتك؟ وأين ذاتك؟ لا شيء لك، وإنَّما نسب الله الأشياء إليك نسبة مجازية غير مُستحقة، وقد قال الله لك: هذه يدك التي خلقتها لك، لأنَّه يريد أن يتعرَّف إليك عن طريق هذه اليد، ويريد أنْ يجعلك شاكرًا له وذاكِرًا ومُراقبًا.

ومن المنطلق السَّابق فإنَّ الله ﷻ أراد أنْ يُشعرك بأنَّك فاقد لقدرتك، وأنَّ إمداد القدرة من الله، فتشهد قدرته، ولا تشهد يدك، لأنَّ يدك مخلوقة، وهو الذي قدَّر لها الحركة، وقدَّر لها السُّكون، فتسكن إذا أراد وتتحرَّك إذا أراد لها أن تتحرَّك، وأنت ليس فيك جزء من أعضائك إلاَّ ويدعوك إلىٰ أن تشكر ربَّك وتشهده ولا تشهد نفسك، وتكون موصولاً بربِّك ومقطوعًا عن نفْسِك.

إذن لو عدنا إلىٰ الموضوع وانتقلنا إلىٰ قضية المعراج، فالمِعراج هو السُّلَّم الذي يُعرج عليه، وهو من عرج يعرج، وقد عرج النَّبيُّ ﷺ علىٰ مِعراج نُصِبَ له من ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، وكيف يعمل هذا المعراج؟ إنَّه يعمل كالبرق، لأنَّ سُمْكَ السَّماء خمسمائة سنة، ومن السَّماء إلىٰ الأرض مسافة خمسمائة سنة، فهذه ألف سنة في كلِّ سماء، وهناك سبع سموات، فيحصل لنا سبعة آلاف سنة، وزيادة علىٰ ما بعد سِدرة المُنتهىٰ، ومن سِدْرة المُنتهىٰ إلىٰ ما لانهاية، حيث وقف جبريل عليه السلام وقال: «**لكلّ مِنَّا مقام معلوم، ولو زدتُ معك لاحترقتُ**»، فقال له المصطفىٰ ﷺ: «**أفي هذا المقام يتركُ الحبيبُ حبيبَه يا جبريل؟**»، فقال جبريل عليه السلام: «**لو تجاوزتُ لأحرقتني سُبُحات الحقِّ**».

إنَّ الوقت لا يكفينا للكلام علىٰ كل تفاصيل القضيَّة، ولذلك نختصر الكلام، فنلاحظ أنَّ العلماء قد اختلفوا في قضية هل أنَّ النَّبيَّ ﷺ عرج بروحه وجسده، أم بروحه فقط؟ وهذا الكلام ليس لنا حاجة به، والذي نؤمن به أنَّ النَّبيَّ ﷺ عرج بجسمه وروحه، وهذا الأمر يُعطينا مفهومًا بأنّه عندما وصل إلىٰ سِدْرة المُنتهىٰ، فإن المولىٰ ﷻ فتح له بصيرته وغيِّر هيئته التي يستطيع أن يعرج بها إلىٰ مقابلة الحقِّ جلَّ جلاله.

لأنّ هذا الجسم البشري لا يمكن أن يرىٰ الحقَّ ﷻ مشافهة، فالله ﷻ أعطاه مُقَوِّمات خاصَّة جعلها في جسمه وفي بصره وفي بصيرته ليستطيع أن يرىٰ الحقَّ، لأنَّه لو كانت الرُّؤيا بالأجسام لكانت محدَّدة ومُجَسَّمة، وهذا غير ممكن وفي استطاعة الله جلَّ جلاله في أقلِّ من طَرْفَة عَيْنٍ أنْ يجعلَ المخلوق مخلوقًا آخر صالحًا للنَّظر إلىٰ وجهه الكريم، ولمقابلته مشافهة، وهذا أمر يسير علىٰ الله، وهذا ما فعله بمحمد ﷺ.

ولمَّا عرج الحبيبُ ﷺ حتَّىٰ كان قاب قوسين أو أدنىٰ كما قال القرآن فماذا حصل؟ لقد رجع للمُسلِمين وللمؤمنين بهدية الإسراء والمعراج، فما هي هذه الهدية؟ إنَّها الصَّلوات الخمس التي أُفْتُرِضت عليه في السَّماء خمسين.

نذكر في هذا المقام أنَّ الرَّسولَ ﷺ قابل في كل سماء بعض الأنبياء عليهم السلام وكانوا يخاطبونه ويخاطبهم، ويحدِّثونه ويُحدِّثهم، وفي هذا دليل علىٰ أنَّ الأموات من الأنبياء والمؤمنين أيضًا يُخاطِبون الأحياء، ويُكلِّمونهم ويُحدِّثونهم وينصحونهم كما نصح سيِّدنا موسىٰ عليه السلام النَّبيَّ ﷺ عندما جاء بالخمسين صلاة، وقال له: «لقد جرَّبتُ قبلك بني إسرائيل ولم يُطيقوا ذلك، فعُدْ إلىٰ ربِّك واسأله التَّخفيف»، وفي كلِّ هذا دليل علىٰ أنَّ الأمواتَ لهم كلامٌ كالأحياء شريطة أن يخرجَ الإنسانُ عن بشريته المعروفة، وتكون له بشرية لطيفة لها بصيرة غير البصيرة المعهودة للبشر، وهؤلاء الجماعة الذين يقولون أنِّ الذي مات لا يأتي منه شيء، فنقول لهم انطلاقًا من هذه المسألة مسألة الإسراء والمعراج: إنَّ الأمر علىٰ عكس ما تعتقدون، فإنَّ للأموات أفعالاً ونصائح والدَّليل علىٰ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**الأَنْبِيَاءُ أَحْياء في قُبورِهم يُصَلُّون**»[1]، وهذا الدَّليل الأوَّل.

وأمَّا الدَّليلُ الثَّاني: فهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا صلَّىٰ عليه مؤمِن أو مؤمنة في أيِّ مكان من الأرض فإنَّ اللهَ ﷻ كلَّف ملائكة يُبلِّغونه ذلك السَّلام، فيردُّ الحبيب ﷺ علىٰ أحبابه السّلام بأحسن منه، فأين المسافات؟ وأين الزَّمان؟ ويا أخي أنت في مدينة أمِّ البواقي وبينك وبين المدينة المنوَّرة آلاف الكيلومترات وتُصلِّي هنا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وقد سخَّر الله ﷻ مَلَكًا في قبره الشَّريف وهو يعرفك ويعرف أباك أيضًا ويقول: إنَّ فلانا ابن فلان يا رسول الله يُصلِّي ويُسلِّم عليك، فيردُّ النَّبيُّ ﷺ عليك السَّلام، ويُصلِّي عليك الله ﷻ عشر مرات بهذه الصَّلاة، وقد ورد في بعض الآثار أنَّ مَلَكَيْن يقولان لمن صلَّىٰ علىٰ النَّبيِّ ﷺ غفر الله لك، وإذا لم يسمعا مِن أحد الصَّلاة عليه، يقولان له: لا غفر الله لك.

وهنا نرىٰ أنَّ سيِّدنا موسىٰ عليه السلام كان يُردِّد النَّصيحة للنَّبيِّ ﷺ ويقول له في كل مرة: «عُدْ إلىٰ ربِّك فاسأله تخفيفَ الصَّلاة»، حتَّىٰ وصلتْ إلىٰ خمس صلوات، فقال النَّبيِّ ﷺ: «**يا مُوسىٰ قد واللهِ اسْتَحْيَيْتُ مِن ربِّي ممَّا اختلفتُ**

(1) رواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده.

إليه»[1]، ورجع النَّبيُّ ﷺ بهذه الهدية للمُسلِمين، والتي هي الصَّلاة، وهي معراج المؤمن ومعراج المؤمنة، وفي الصَّلاة يخرج العبد عن جِنْسه ونَفْسِه، وعن فِلْسه ومتاعه، ويكون فيها مع ربِّه، وهذه هي الصَّلاة الحقيقية.

إذن الصَّلاة الحقيقية هي الصَّلاة التي تفنىٰ فيها عن جِنسك وعن فِلسك وعن نفْسِك، وتكون فيها مع ربِّك تناجيه ويناجيك، ويخاطبك وتخاطبه، ولذلك عندما تقول في الصَّلاة: الحمد لله ربِّ العالَمين، يقول لك ربُّك ويقول للملائكة: «**حمدني عبدي**»، وأنت لا تطيق هذه الإجابة، ولو سمعتَها بحقٍّ لاضمحلَّ جسمك فتكريمًا من الله لك أن لا يُسمعك ذلك، ويجعلك تؤمن به، لأنَّك لا تطيقه، وجسمك ليس مخلوقًا ليُطيق سماع كلام ربِّ العِزَّة مباشرة، وإذا نظرنا إلىٰ الصَّلاة نجد فيها الأمر نفسه، فأنت تدخل في الصَّلاة مثلاً بتكبيرة الإحرام، فما معنىٰ تكبيرة الإحرام؟ وما هو الإحرام؟

الإحرامُ هو أنْ تتجرَّد من كلِّ شيء حتَّىٰ من نفْسك، وتتجرَّد من كلِّ ما هو حولك، وتكون في تلك اللَّحظات لربِّك وفي معيَّته، وهذه هي حقيقة الصَّلاة التي يخرج صاحبها منها موصولاً بربِّه، وأمَّا الذي لا يُصلِّي مثل هذه الصَّلاة، فيخرج منها مقطوعًا -والعياذ بالله- ويخرج إلىٰ مفاسده، ويعود إلىٰ طبائعه وخبائثه، وإلىٰ مَكْرِه وكذبه، وهذا معناه في الحقيقة أنَّه لم يكن يُصلِّي، وإنَّما كانت صلاته شكليَّة، وهذا ما يُسَمِّيه القوم صلاة الأشباح، أي حركات شكليَّة لا دخل للرُّوح فيها، وأمَّا صلاة الأرواح فهذه الصَّلاة مَن صلاها لا ينقطع أبدا عن الصِّلة بربِّه، ولذا قال أحد العارفين بالله: «لو قبِل الله منِّي سجدة واحدة لأعددتُ نفْسي سعيدًا»، وقال أبو يزيد البسطامي: «لو علمتُ أنَّ الله قبِل منِّي تسبيحة واحدة لما استطعتُ أن أشكر الله إلىٰ يوم القيامة».

وهذا من أجل تسبيحة واحدة، فما بالك بالتَّسبيح في سنوات العُمر، وهؤلاء هم الذين قال الله في حقهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [**المعارج: 23**]، أي هم

(1) رواه الإمام البخاري.

علىٰ صِلة من ربِّهم، ينتقلون من الصَّلاة إلىٰ الذِّكْر والاستغفار والصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ وغير ذلك، وينتقلون من الصَّوم إلىٰ قراءة القرآن وإلىٰ الصَّدقة، فهم دائمًا علىٰ صِلة بربِّهم، ولا ينقطعون عن الحقِّ إطلاقًا، وهذه الصِّلة الدَّائمة بالله هي ما تدعوننا نسبتنا إليها، وتريد تحقيقها فينا، بشرط أنْ نُطَبِّق ما نسمع من تعليمات شيخ طَّريق السلوك والتربية، وأمَّا إذا لم نفعل ذلك فلن نصل إلىٰ نتيجة، ولو صحبنا مشايخ التربية آلاف السِّنين.

إذن فالمعراج باختصار عملية انسلاخ وعملية اضمحلال عن الأكوان مرَّة واحدة، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لما ترك الأكوان، وترك عوالِم الجِنِّ والإنْس والملائكة فقد عرج إلىٰ ربِّه عُروجًا إلاهيًّا، وليس عروجًا مُحمَّديًّا، فليس سيِّدنا محمَّد الذي عرج، لا، بل عُرِج به، وعندما يعرج بك الحقُّ ﷻ فإنَّه يُهَيِّئُك تهيئة خاصَّة تختلف عن بشريتك العادية، لأنَّك بهذه البشرية لا تُطيق ذلك.

إنَّ رؤيةَ الحقِّ ﷻ المطلوبة في الدُّنيا رؤيا عِلمية ومعرفية يفنىٰ فيها العبد عن نفسه، وعندما يلاقي العبدُ ربَّه يوم القيامة فسيجعل الله له بشرية صالحة لرؤيته مظهرها بشريَّة، وباطنها مختلف عن ذلك، وتحصل للعبد حينئذ تجديدات خاصَّة صالحة لرؤية الحقِّ جلَّ جلاله بدون تشبيه، أو تحديد لذات الله، لأنَّ بهذه البشريَّة الموجودة الآن لن نستطيع رؤية الحقّ ﷻ، ولهذا قال سيِّدنا موسىٰ عليه السلام للحقِّ تبارك وتعالىٰ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]، يا سلام علىٰ كلام الأنبياء، لم يقل سيِّدنا موسىٰ عليه السلام: دعني أو اتركني أنظر إليك، وكلمة أرني معناها إنَّك إن لم تُهيئني تهيئة خاصَّة لأراك بها، فلن أطِيق ذلك في حالتي البشريَّة.

وفي هذا المقام قال الله ﷻ لسيِّدنا موسىٰ عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، لماذا؟ لأنَّ بشرية العبد لا تُطِيق هذه الرُّؤيا، ولو أباح الله لأحد ذلك لاضمحلَّ جسمه وتلاشىٰ كيانه، كما حدث للجبل الصَّلب القويِّ الأشمِّ حين تجلَّىٰ الله له فَدُكَّ دكًّا واضمحلَّ، وصعق موسىٰ عليه السلام عندما رأىٰ المُتجَلَّىٰ عليه من قِبَل الحقِّ جلَّ جلاله، وكأنَّ اللهَ ﷻ يقول لموسىٰ: كيف تستطيع بشريتك أنْ تراني رؤية مباشرة؟ ولكنَّك

تراني في هذه الدنيا رؤية عِلمية معرفية، تعرج فيها روحك عندما تغيب عن جسمك وبشريتك، وعن جِنسك وفِلسك، وعن أهلك وعن كلِّ شيء.

لقد صعق موسىٰ عليه السلام ولم يستطع أنْ ينظرَ للجبل عندما تجلَّىٰ عليه الحقُّ جلَّ جلاله، فكيف يُطيق النَّظر إلىٰ الحقِّ ﷻ مباشرة؟ هذا من باب المستحيل، وهذا لا يعني نفي الرُّؤية، ولكن البشرية لا تستطيع ذلك، لأنَّها مُحدَّدة بالزَّمان والمكان، والله ﷻ مُطلق الذَّات لا يتقيد بالزَّمان ولا المكان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وانظر إلىٰ حكمة فقير من فقراء الطَّريق[1] عندما سأل عالمًا معتزليًّا وقال له: أنتم تَنْفُون رؤية المؤمِنين لله ﷻ في الآخرة، فقال ذلك العالِم: نعم، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]، فقال له ذلك الفقير: ولكن إذا أدرك الله الأبصار أفناها فتراه به، أي ترىٰ الحقَّ بالحقِّ، وهذا كلام عظيم وغريب.

ولنعُد إلىٰ إسرائنا نحن معاشر المؤمِنين وهي الصَّلاة التي جمع الله لنا فيها عبادة أهل السَّموات السَّبع حيث أنَّ من الملائكة المُكَبِّرين فنحن نُكبِّر في الصَّلاة، ومِن الملائكة الرَّاكعين فنحن نركع، ومنهم السَّاجدين ونحن نسجد كذلك، ومنهم القائمين ونحن نقوم في صلاتنا، فكل عبادات أهل السَّموات عندنا في الصَّلاة، ولذلك ورد في أثر: «الصَّلاة مِعْراجُ المؤمِن»، فعندما يدخل العبد في الصَّلاة ويغيب فيها عن نفْسِه وهواه، ويفنىٰ فيها عن جنسه وأهله، وعن فِلْسِه وماله، ماذا يبقىٰ؟ لا يبقىٰ إلا الله، ولذلك افتُتِحت الصَّلاة بالتَّكبير، يعني بالتَّجريد الكامل، لأنَّ كلمة الله أكبر تقتضي الغياب عن الكلِّ، ومن جملة الكلِّ نفسك أنت.

---

(1) فقراء الطَّريق: مصطلح يطلقه أتباع الطريقة التابعية علىٰ أنفسهم، وللمزيد في الموضوع ينظر: إجابة العارف بالله الشيخ علي تابعي رضي الله عنه علىٰ السؤال الثالث في الحوار الخامس والسؤال الخامس في الحوار السابع ضمن الفصل الثالث من هذا الكتاب. (جامع الكتاب ومدوّنه).

لأنَّك إذا عظَّمْتَ ربَّك وأنت ترىٰ نفْسك، فإنَّك لم تُكبِّره، بل ما زال عندك نوع من الكبرياء، وقد حذَّر الحقُّ جلَّ جلالُه مَن يشاركه في عظمته وكبريائه فقال في حديث قدسيٍّ: «**الكِبرياءُ رِدائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدا منهما قذفتُه في النَّار**»[1]، وكيف نشارك الله في كبريائه؟ نشاركه عندما ندخل في كلمة أنا، فنون العظمة لا تليق إلا بالله، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14]، ومَن دخل في نون العظمة قطعه الله، وكيف يقطعه؟ يقطعه عن الصِّلة به، أي إذا دخل العبد في أنانية نفسه قطعه الله عن الصِّلة به، وفعلاً كلُّ من يقول أنا تجده مقطوعًا عن ربِّه في تلك اللَّحظة بدون شكٍّ، ولماذا؟ لأنَّه نازع الحقَّ جلَّ جلاله في الكبرياء والعظمة وشاركه فيهما، وإذا أراد عبد أن يشارك الله في العظمة الإلهيَّة قطعه الحقُّ ﷻ، ويصبح مقطوعًا غير موصول، غافلاً غير ذاكر، وغائبًا عن ربِّه، حاضرًا مع نفْسِه، فيكِلُه الله إليها، ويكون من الهالكين والعياذ بالله.

إنَّ في الصَّلاة أسرارًا دقيقة، ومنها أنَّنا عندما ندخل في التَّحيَّة ونقول: التَّحيات لله الزَّاكيات، فأين قال الرَّسول ﷺ هذا؟ فقد قال ذلك في ملاقاة الحقِّ جلَّ جلاله لما كان قاب قوسين أو أدنىٰ، قال: التَّحيات لله الزّاكيات لله الصَّلوات لله، فخاطبه الحقُّ جلَّ جلاله، وقال له: السَّلام عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمة الله وبركاته، ولماذا قال الله ﷻ لحبيبه في هذا المقام: السَّلام عليك، ولم يقل له الصَّلاة عليك؟ لأنَّ الصَّلاة اضمحلال، والسَّلام أمان مِن الله، ولذلك قال له: السَّلام عليك، أي أنَّك ستعود سالمًا إلىٰ الأرض، وستكون فيها سالمًا من كل ما يقطعك عنِّي، والرَّسول ﷺ في هذا المقام العظيم، في مقام الطَّمس والجلال والعظمة تذَكَّر المؤمنين الصَّالحين، أي عبد صالح من أوَّل الدُّنيا إلىٰ آخرها، فقال: «**السَّلام علينا وعلىٰ عباد الله الصَّالحين**»، وأنت عندما تقول: السَّلام علينا وعلىٰ عباد الله الصَّالحين، فسلامك يصل إلىٰ كلِّ صالح علىٰ وجه الأرض.

(1) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما، واللّفظ لأبي داود.

قال الرَّسول ﷺ في هذه التَّحيَّة: «**أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّدا رسول الله**»، ولماذا يقول ذلك وهو كذلك؟ لأنَّه لا بد أن يؤمِن بنفْسِه، أي بأنَّه رسول الله، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 285]، وكما أنَّ الوليَّ يجب أنْ يؤمِنَ بنفسه، أي بأنَّه وليٌّ، ولكن من طبيعة الأولياء أنَّهم لا يُحبُّون أن يُظهِروا هذا الأمر، وذلك خوفًا من أن يغترَّ بهم الخَلْقُ فيهلكون.

لأنَّ النَّاسَ يتعلَّقون بهم، ويقولون لهم: «لعلَّ الله يرحمنا بكم، وتشفَّعوا فينا، وخذوا بأيدينا وادعوا لنا»، ومن دأب الصَّالحين التَّواضع، لأنَّهم لا يشهدون الله كما يشهده العامَّة من العباد في مكان واحد، وفي الصَّلاة فقط، بل الله مشهود عند الأولياء حيثما تجلَّى، ولهذا يُنْكِرُ البعض علىٰ الأولياء شهودهم الخاصَّ هذا، ولذا قال العالم الربّاني الشَّيخ العلاوي رَحِمَهُ اللهُ:

نــقَــمُــوا مــن الــمُــوَحِّــد أنْ قــال الــلــه مــشــهــود

ويا عجبا هل تحجبُ الله الأشياء التي هي مخلوقة له، والتي هي أمره وفعله وخَلْقه؟ هذا غير معقول، وهل تحجبُ الصَّنعة صانعها؟ هذا غير ممكن، وهل رأيت نجَّارًا أو حدَّادًا حُجِبَ بصنعته؟ لا، فالصَّنعة لا تحجبُ الصَّانعَ إطلاقًا.

إنَّنا في خاتمة الصَّلاة نصِل إلىٰ الصَّلاة الإبراهيمية: «اللَّهمَّ صلِّ علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد، كما صلَّيتَ علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم في العالَمين إنَّك حميد مجيد»، فلماذا يُصلِّي النَّبيُّ ﷺ علىٰ أبيه إبراهيم؟ لأنَّ اللهَ صلَّىٰ عليه، وعندما يقول النَّبيُّ ﷺ في بعض دعواته: «**ربِّ ظلمتُ نفسي ظُلْمًا كثيرًا**»، ومن المعلوم أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يظلِم وهو معصوم من الذَّنْب، ولا يخطرُ في باله السُّوءُ ولا الفحشاء، فكيف يقول كلاما مثل: «**ظلمتُ نفْسي**» والجواب أنَّ معنىٰ ظُلْمِهُ لنفْسه أنَّه لم يُعطها ما تستحقُّه من التَّعظيم ومن الاحترام، وممَّا يليق بها كما جعلها الله كذلك، فهو ﷺ يستغفر الله لأنَّه لم يُعْطِ نفْسَه الشَّريفة حقوقها.

إذا نظرنا من ناحية أخرىٰ في الصَّلاة نلاحظ أنَّ المُنكِرين عن الصَّالحين مجبورون علىٰ أن يُسلِّموا علىٰ الصَّالحين في صلواتهم، ولو كانوا يُنْكِرون عليهم،

وكما أنَّنا نجد في سورة الفاتحة قوله ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ومِن النَّاس من يقول لا أعترف إلا بالله ﷻ، والرَّسول ﷺ يقول: «**مَن لم يشكُر النَّاسَ لم يشكر الله** ﷻ»[1]، وقال أحد العارفين: «لا أعرف إلاَّ الله»، لا، لابدَّ أنّ نعرف أنَّ لله وسائط يجري على أيديهم نِعَمَه إلى خَلْقِه، وهذه الوسائط نفهم دورها ونَعرِفها ونقبلها، وصحيح أنَّها ليستْ هي الله، ولكن لا بدَّ من الاعتراف بها.

ونحن نقول لمن يُنكر الوسائط أنتم تقرؤون في صلاتكم قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، ثُمَّ تُحَتِّمون على أنفسكم وتقولون: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أو ليس هذا إقرارًا منكم بالوسائط؟ ومَن هم الذين أنعم الله عليهم؟ هم الذين ذكرهم الله في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: 69]، لقد نُسِبَ الطَّريقُ إلى هؤلاء المذكورين آنفًا، لأنّهم هم المُسْتَعْمِلُون له، وهم المُلْتزِمُون به، والمُدَاوِمُون عليه، والطَّريق هو شريعة الله ﷻ وسنَّة النَّبيِّ ﷺ، فمن كثرة التزامهم به والمحافظة عليه، وسلوكهم له نُسِبَ الطَّريقُ إليهم، فيقالُ: صراط الذين أنعمتَ عليهم وأكرمتهم بالالتزام به، وبالتَّقيُّد بالعمل بما يجب السَّير على الصِّراط والتي نُسمِّيها نحن الطَّريق، أو كما نُحِبُّ تسميتها.

وهذا باختصار ما في الإسراء والمعراج، والسُّؤال الأهمُّ بعد هذا الكلام، أو ليس لنا نحن معاشر المؤمنين إسراء ومعراج؟ بلى فالحمد لله الذي أكرمنا بسيِّدنا محمَّد ﷺ، والذي جاءنا بمعجزة كبرى ألا وهي الإسراء والمعراج، وهي الصَّلاة، ولذلك ينبغي أن نحافظَ عليها، ونفهم حقيقتها، وعندما ندخل فيها نغيبُ عن رؤية النَّفْس، وعن رؤية العمل صادرًا منها، ونرى أنَّ الحقَّ هو الذي ألبسنا حُلَّةَ القُرْبِ، والتي هي الصَّلاة.

(1) رواه أحمد في مسنده بهذا اللَّفظ.

أجل إنَّ الصَّلاةَ حُلَّةٌ من اللهِ، وهدية من المنَّان، فنحن لا نستطيع أنْ نعبده ذَرْعًا عنه، ولو لم يُلبسنا الحقُّ ﷻ هذه الحُلَّة لما استطعنا أنْ نصليَ، بدليل أنَّ هناك أناس لم يُلبسهم الله حُلَّة الصَّلاة فهم لا يُصَلُّون، ولو قلتَ لأحد منهم: «صَلِّ»، لقال لك: «لا أصلِّي حتىٰ يهديني الله»، وهذا من علامة الخذلان والمقت -والعياذ بالله- وأمَّا الذي أهَّله الحقُّ ﷻ لقُربه، فقد ألبسه لباسَ التَّقوىٰ وحُلَّة الرِّضا والتي هي الصَّلاة، وقد جعلك الله تتَّصل به في اليوم خمس مرات، لماذا؟ لأنَّه لا يريدك أن تكون خارجًا عن معيَّته، لأنَّك إنْ فعلتَ ذلك أوْكلك الله إلىٰ نفْسك فهلكتَ، فحفاظًا عليك وإكراما لك فرض عليك الصَّلاة.

وكلَّما نسيتَ ودبَّتْ فيك الغفلةُ شرع المؤذِّنُ يؤذِّن للصَّلاة «الله أكبر، الله أكبر»، وهو يخاطبنا ويخاطبك أنت بالذَّات، ولا بدَّ أن تسمعَ، وعندما يقول المؤذِّن: «الله أكبر، الله أكبر»، كان من المفروض عليك أنْ تغيبَ عن جِنْسِك ونفْسِك وفِلْسكَ، وتشهدَ ربَّك، ولهذا أوصانا النَّبيُّ ﷺ بمُحَاكَاةِ الآذان، أي ترديد ألفاظ الآذان معه لنفهمها ونعيها، ونعايش الحقَّ جلَّ جلاله فيها، لأنَّها ليستْ مُجَرَّد كلماتٍ تُرَدَّدُ، بل لكلِّ كلمة معنىٰ ومفهوم يُزَلْزِل الجبال، ولكن لكوننا مُغَفَّلُون، فالأمر عندنا سِيَّان عندما نسمع «الله أكبر»، أو كلمة أخرىٰ، لأنَّنا فاقدون للشُّعور.

لقد جاء السَّادة الصُّوفيةُ وركَّزُوا علىٰ قضية الذَّوق والشُّعور والمعايشة، ونبَّهوا علىٰ أنَّ الإيمانَ حقيقةٌ لا حديثًا، ولا كلاما تتشدَّق به الألسنة ولا تتذوقه القلوب، وأرادوا أن يجعلوا أتباعهم يعيشون الإيمان، ولا يكتفون بالحديث عنه، بل يتذوَّقونه، وكان عندنا أحد المُريدين عندما يتفرَّج علىٰ التِّلفاز، رغم أن هذا الجهاز قد يكون فيه بعض الأمور غير الطَّيِّبة في نظر المُغَفِّلين، ولكن هذا المُريد يعرج وينجذب ويمتلأ بكاء وصياحًا، لأنَّه لا يشاهد ولا يرىٰ كما يرىٰ النَّاس، ومن هنا قال أحد العارفين بالله:

قلوبُ العارفين لها عيُونٌ ... ترىٰ ما لا يُرىٰ للنَّاظرين

ولو رأيتَ ما رأىٰ العارفون لاضمحلَّ جسمُك، ولضاقتْ الدُّنيا علىٰ نفْسِك، وتمنيتَ أن تلقىٰ ربَّك في تلك اللَّحظة، وهذه المقامات العظيمة التي عاشها العارفون قد يُنكرها المُنكِرون، وذلك مبلغهم من العِلْم، وكلٌّ إناء بما فيه ينضح، ومن هذا المنطلق علينا أن نشكر الله تعالىٰ الذي أمدَّنا بهذه النَّفحات الرَّبَّانيَّة، وأعطانا هذه المجالات القدسيَّة التي ندور فيها من صلاة وقراءة قرآن وتسبيح وذِكْر وسماع ومن كل ما يُقرِّبنا إلىٰ ربِّنا.

وها نحن والحمد لله في كل لحظة في قُربة من القربات، أفلا يجدر بنا أن نملأ الكون شكرًا؟ بلىٰ من حقِّنا أن نملأ الكَوْنَ شكرًا وتعظيمًا وإجلالاً لله، الذي أمدَّنا بالإنعام، لأنّه قال وقوله الحقُّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، وليس لنا طريق أخرىٰ غير طريق الشُّكر، وإنْ لم نشكر الله علىٰ نِعَمِه يُحرمنا منها، ومن رضاه، ولهذا فقد قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن لم يشْكُر النِّعم فقد تعرَّض لزوالها، ومَن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها».

وحتَّىٰ لا نُطِيلَ عليكم كثيرًا، علينا معاشر الفقراء والفقيرات أن نكون لله، وأن نجعل حياتنا وتصرفاتنا كلَّها له، فهو الكفيل بنا، والرَّازق لنا، والرَّحمن والرَّحيم بنا، والستَّار علينا، والقاصم لمَن يظلِمنا، وهو الجبَّار القاهر، والحليم الرَّؤوف، والمَلِك القُدُّوس، وهو السَّلام المؤمِن المهيمِن العزيز الحكيم.

وفي الختام أسأل الله أن يُجبرَ أحوالنا، ويُصلحَ حالنا ومآلنا، وأن يجعل قلوبنا لا تغفل عنه طَرْفَةَ عيْن، اللَّهمَّ أبعدنا عما يكون سببًا في غفلتنا عنك، واجعلنا موصولين بك، وغير منقطعين عنك، واجعل حبَّك لنا يملأ قلوبنا وأنفسنا حتىٰ لا نحبَّ سواك، ولا نعشق غيرك، ونكون لك في كل الحالات والأحوال إنَّك رحمان رحيم، فأفض علينا من رحمانيتك ما تملأ به قلوبنا شكرًا وتعظيمًا لك، إنَّك علىٰ كلِّ شيء قدير. اللَّهم وفِّقنا لما تحبُه وترضاه، واجعلنا من الصَّالحين المُتَّقين، سبحان ربِّك ربِّ العِزَّة عما يصفون وسلام علىٰ المُرسَلين، والحمد لله ربِّ العالَمين.

الدَّرس الثَّاني

فضائل شهر شعبان

فضائل ليلة النِّصف من شعبان .. (ليلة البراءة)

بعد تلاوة عطرة مباركة لأحد المقرئين للآيات الكريمة الآتية: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: 1-8]، قال الشَّيْخُ الجليل مُرَبِّي المُريدين وقدوة السَّالكين علي تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فهو المهتدي، ومن يُضلل فلن تجد له وليًّا مُرشدًا، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليمًا، **أَمَّا بَعْدُ**:

فإنَّ هذه اللَّيلة المباركة ليلة النِّصف من شعبان ليلة عظيمة من ليالي هذا الشَّهر المبارك العظيم، الذي حاز هذه العظمة لأنَّه نُسِبَ للنَّبيِّ ﷺ الذي قال في حقِّ هذا الشَّهر الفاضل: «خيرة الله من الشُّهور شهر رجب، وهو شهر الله، مَن عظَّم شهر الله رجب فقد عظَّم أمرَ الله، ومَن عظَّم أمر الله أدخله جنَّات النَّعيم، وأوجب له رضوانه الأكبر، وشعبان شهري، فمَن عظَّم شهر شعبان فقد عظَّم أمري، ومَن عظَّم أمري كنتُ له فرَطًا وذخرا يوم القيامة، وشهر رمضان شهر أمَّتي، فمَن عظَّم شهر رمضان، وعظَّم حُرمته، ولم ينتهكه، وصام نهاره، وقام ليله، وحفظ جوارحه، خرج مِن رمضان وليس عليه ذنْبٌ يطلبه الله به»[1].

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

إذن شهر شعبان شهر عظيم كلُّه، ويستحقُّ من كلِّ المُسلِمين تعظيمه وإجلاله، وكيف لا، وهو شهر النَّبيِّ الكريم ﷺ، ومِن ليالي هذا الشَّهر ليلة النِّصف منه، وتُسمىٰ اللَّيلة المباركة لكثرة خيرها وبركتها علىٰ العامِلين، وتُسمىٰ كذلك ليلة البراءة، لأنَّ الله يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه اللَّيلة، وقد جاء في تفسير ابن عجيبة: وروىٰ أبو الشَّيخ بسند صحيح عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: 39]، قال: «ليلة النِّصف من شعبان، يُدَبِّرُ الله ﷻ أمْرَ السَّنةِ، فيمحُو ما يشاء ويثبت غيره الشَّقاوة والسَّعادة، والموت والحياة»، قال الإمام السُّيوطي رحمه الله «سنده صحيح لا غبار عليه ولا مَطْعَنَ فيه».

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قوله: «إنَّ الله يقضي الأقضية كلَّها ليلة النِّصف من شعبان، ويُسلِّمها إلىٰ أربابها ليلة القدْر، وفي رواية ليلة السَّابع والعشرين من رمضان».

إنَّ ليلة النِّصف من شعبان ليلة تُقْطَعُ فيها الآجال، وتنسخُ الأحياء من الأموات، وقد جاء في تفسير الطَّبري عن عثمان بن محمَّد بن المغيرة بن الأخنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُقْطَعُ الآجالُ من شعبان إلىٰ شعبان، حتَّىٰ إنَّ الرَّجل لينْكِحُ ويُولَد له، وقد خرجَ اسمُه في الموتىٰ**».

وقد وردت أحاديث كثيرة تُنَوِّهُ وتُشِيدُ بليلة النَّصف من شهر شعبان المُعظَّم، فعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وكرَّم وجهه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كانت ليلةُ النِّصفِ من شعبان، فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإنَّ اللهَ ينزلُ فيها لغروب الشَّمس إلىٰ سماء الدُّنيا، فيقول ألا مِن مُستغفِر لي فأغفر له، ألا مُسترزِق فأرزقه، ألا مُبتلىٰ فأعافيه، ألا كذا، ألا كذا، حتَّىٰ يطلُع الفجر**»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «خمس ليال لا يُرَدُّ فيهنَّ الدُّعاء: ليلة الجُمعة، وأوَّل ليلة مِن رجب، وليلةُ النِّصف من شعبان، وليلة العيد، وليلة النَّحر»[2]، وقال

(1) رواه ابن ماجه في السُّنن.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان

الإمام الشَّافعي: «وبلغنا أنَّه كان يُقال: إنَّ الدُّعاء يُستجابُ في خمس ليال: في ليلة الجُمعة، وليلة الأضحىٰ، وليلة الفِطْر، وأوَّل ليلة من رجب، وليلة النِّصف من شعبان»[1]، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يطَّلِعُ اللهُ إلىٰ خَلْقِهِ في ليلة النِّصف من شعبان فيغفر لجميع خَلْقِهِ، إلاَّ لمُشْرِك أو مُشاحِن**»[2].

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يصومُ حتَّىٰ نقول لا يُفطِر، ويُفطِر حتّىٰ نقول لا يصوم، وما رأيتُ رسولَ الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلاَّ رمضان، وما رأيتُه في شهر أكثر منه صياما في شعبان»[3].

وعن ثابت عن أنس قال: «سُئِل النَّبيُّ ﷺ: أيُّ الصَّوم أفضل بعد رمضان؟ فقال: **شعبان لتعظيم رمضان، قيل: فأيُّ الصَّدقة أفضل؟ قال: صدقة في رمضان**»[4].

وعن أسامة بن زيد قال: «كان رسولُ الله ﷺ يصوم الأيَّام يَسْرُدُ حتَّىٰ يُقال: لا يفطِر، ويفطِر الأيَّام حتَّىٰ لا يكاد أنْ يصوم إلاَّ يومين من الجمعة إن كانا في صيامه وإلاَّ صامهما ولم يكن يصوم من شهر من الشُّهور ما يصوم من شعبان، فقلتُ: يا رسول الله إنَّك تصوم لا تكاد أن تفطِر، وتفطِر حتَّىٰ لا تكاد أنْ تصوم إلاَّ يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما، قال: أيُّ يومين؟ قالت: قلتُ: يوم الاثنين ويوم الخميس، قال: ذانك يومان تُعْرَضُ فيهما الأعمال علىٰ ربِّ العالَمين، وأحِبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم، قالت: قلتُ: ولم أرك تصوم من شهر من الشُّهور ما تصوم من شعبان قال: ذاك شهر يغفل النَّاس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلىٰ ربِّ العالمين، فأحِبُّ أن يُرفع عملي وأنا صائم»[5].

---

(1) المرجع نفسه.

(2) رواه ابن حِبَّان في صحيحه.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه التِّرمذي في السُّنن.

(5) رواه الإمام أحمد في مسنده.

إنَّ شهرَ شعبان عظيمُ القدْر عند الله ﷻ، وهو شهر البركات، ويسحُّ فيه الخير علىٰ المُسلمين سحًّا (أي يصبُّ اللهُ فيه الخير علىٰ المُسلمين صبًّا)، ومن هنا يجب علىٰ المرء أنْ يهتمَّ بما اهتمَّ به الله وفضَّله، ويُحاول بكلِّ ما لديه أنْ يعتنيَ اعتناء خاصًّا بهذا الشَّهر المبارك، وأن يُحْيي لياليه بالطَّاعات والذِّكْر وسائر أنواع القُربات، ولاسيما ليلة النِّصف منه، ولا يُلقي بالا للمُتشدِّقين الذين يتحدَّثون عن شهر شعبان باستخفاف، ويُنكِرون علىٰ مَن يهتمُّ بإحياء لياليه الفاضلة، وينسبونه إلىٰ البدعة، ويقولون أنَّ كلَّ ما يُفْعَلُ في الاحتفال بليلة النِّصف من شعبان بدعة وضلالة.

وهذا غير صحيح، لأنَّ الأحاديث الواردة في فضل شهر شعبان عمومًا وفي فضل ليلة النِّصف منه خصوصًا صحيحة عند علماء الحديث كما ذكرنا بعضها سابقًا، وإذا وردتْ بعض الأحاديث في هذا الباب ضعيفة فهي لا تقدحُ في فضيلة هذا الشَّهر المبارك، ولا تُنقص من قدْر ليلة النِّصف منه وفضلها، وذلك لأنَّ أغلب العلماء يقولون بالعمل بالحديث الضَّعيف إذا ورد في باب الفضائل.

والمعلوم أنَّ الأحاديث الضَّعيفة ليستْ هي الموضوعة، لأنَّ الحديث الموضوع هو حديث مكذوب علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وهناك من لا يُفَرِّق بين الحديث الضَّعيف والحديث الموضوع، ويحكم عليهما بنفس الحُكْم، وهذا خطأ، وكثير من العلماء الأجلَّاء يستشهدون في كتبهم بالأحاديث الضَّعيفة، ويستدلُّون بها، ويُقِرُّون بصحة مَن عمل بها في باب الفضائل، ومِن هذا المنطلق نقول: لا ضير في قوم اجتمعوا في ليلة النِّصف من شهر شعبان للذِّكْر والتَّسبيح وتلاوة القرآن الكريم ومُدارسة سيرة النَّبيِّ ﷺ وأحاديثه النَّبوية الشَّريفة، ولا حُجَّة لمَن يعترض عن هذا ويقول: لماذا تخصُّون ليلة النِّصف من شهر شعبان بالتَّحديد للاجتماع والذِّكْر؟ والحقيقة أنَّ هؤلاء لا يفهمون معنىٰ التَّخصيص، فما هو المعنىٰ الحقيقي للتَّخصيص؟

التخصيص يعني أنَّ أحدًا لم يكن يؤدِّي الصَّلاة، ولم يتعوَّدْ على ذِكْرِ الله، ولم يكن من شأنه التَّسبيح والتَّهليل والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، فإذا حلَّتْ ليلة النِّصف من شهر شعبان يشرع في الصَّلاة والذِّكْرِ والاشتغال بسائر القُربات، فإذا انقضتْ تلك اللَّيلة الفاضلة ترك كلَّ ذلك، فمثل هذا يُقال في حقِّه أنَّه خصَّصَ هذه اللَّيلة بما فعله فيها، وأمَّا نحن فنجتمع في كل اللَّيالي للذِّكْر والمُذاكرة، والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ ومُدارسة الدِّين من تفسير وحديث، فنحن لياليا كلّها كليلة النِّصف من شعبان، فأين التَّخصيص في مثل حالنا واجتماعاتنا؟ فالأمور بالنِّسبة إلينا أمور طبيعية، فهذا شأننا في سائر أوقاتنا سواء تعلَّق الأمر بليلة النِّصف من شعبان، أو ليلة الإسراء والمعراج (ليلة السَّابع والعشرين من شهر رجب الفرد)، أو ليلة المولد النَّبويِّ الشَّريف على صاحبه أفضل الصَّلاة وأكمل التَّسليم.

إذن تبيَّن لنا ممَّا سبق بيانه أنَّ شهر شعبان شهر عظيم القدْر عند الله ﷻ، وقد خصَّه الحقُّ جلَّ جلاله بليلة النِّصف منه ليتجلَّى لعباده بالمغفرة والرَّحمة والتَّوبة عليهم، وفضْل هذه اللَّيلة ثابت بالكتاب والسُّنَّة، ولا حَرَجَ من الاجتماع في اللَّيالي المباركة الفاضلة على قراءة القرآن ومُدارسة أحاديث رسول الله ﷺ ومُطالعة السِّيرة النَّبوية المُطهرة العطِرة، وتَعَلُّم الفقه، وفهم كلام الله ﷻ مِن خلال قراءة التَّفسير، فكلُّ ذلك جائز.

ولا يُعْقَل أنْ يصدرَ من عالِم عاقل عارف، نهي لمؤمن عن إحياء ليلة النِّصف من شعبان بكثرة الذِّكْر، فهذا الأمر غير معقول، لأنَّ هذا النَّهي مخالف للشَّرع، والشَّريعة الإسلامية تحثُّ المسلمين على كثرة الذِّكْر والمداومة عليه في كلِّ الأحوال وفي سائر الأوقات، وأجلُّ الأوقات الأيام الفاضلة واللَّيالي المباركة التي خصَّها الله ﷻ بالخير والفضل والبركة، فينبغي للمؤمن أنْ يغتنِمَ كلَّ الأزمنة الفاضلة لينال بركتها وفضْلها، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**إنَّ لربِّكم** ﷻ في أيَّام دهرِكم نفحات، ألا فتعرَّضوا لها، لعلَّ أحدكم أن تُصيبَه منها نفحة لا يشقى بعدها أبدًا»[1].

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط.

لا شكَّ بأنَّ اللَّيالي المباركة كليلة القدْر العظيمة، وليلة السَّابع والعشرين من شهر رجب، وليلة النِّصف من شهر شعبان هي نفحات نفح بها المولىٰ ﷻ المسلمين من هذه الأمَّة المباركة، ومن حقِّهم أن يجتمعوا فيها، بل وفي كل اللَّيالي للمذاكرة والتَّعلُّم والتَّناصح، وليدلَّ بعضهم البعض إلىٰ الخير ويرشده إليه، ولا مانع للشَّرع أصلا في ذلك، وليس في الشَّريعة السَّمحة أمر ينهىٰ عن هذا أبدًا.

ولكن البعض من البطَّالين الذين يضيعون جُلَّ أوقاتهم فيما لا فائدة فيه لا يروق لهم رؤية من تلهج ألسنتهم بذِكْر الله ﷻ، ولا يعجبهم اجتماع الذَّاكرين في حِلَق الذِّكْر والمُذاكرة، وإحياء اللَّيالي الفاضلة التي تحيا فيها القلوب، وتتنوَّر فيها البصائر بنور الذِّكْر، وينهض فيها النَّاس للعبادة والتَّوبة وللإخلاص والصِّدق، ومَن لم يكن صادقًا اليوم فقد يكون صادقًا غدًا، ومن لم يكن مُقْبِلا علىٰ الله فقد يجدِّد العهد ويتوجَّه بهِمَّته إلىٰ مولاه، ومن هنا لا يجوز أبدا أن يقول أحد: إن مثل هذه المجالس بدعة وضلالة، بل هي روضة من رياض الجنة بشهادة النَّبيِّ ﷺ حيث قال: «**إذا مررتُم برِياض الجنَّة فارتعُوا، قالوا: وما رياض الجنَّة؟ قال: حِلَق الذِّكْر**»[1].

إنَّ الذين يُنكِرون علينا الاجتماع في اللَّيالي الفاضلة كليلة النِّصف من شهر شعبان يحتجُّون بحُجَّة أنَّنا نُخصِّص لهذه اللَّيلة أمورًا لا نتعاطاها في غيرها من اللَّيالي، فهل هذا الزَّعم صحيح؟ وهل هذا الكلام صائب؟ لا، وهل نحن لا نصلِّي إلا في هذه اللَّيلة؟ وهل نحن لا نلهج بذِكْر الله إلاَّ في هذه المناسبة؟ لا، فإنَّ هذا الزَّعم باطل، وليس في القضية تخصيص، فما دام المؤمن مواظبًا علىٰ صلاته لله، وذاكرًا يلهج لسانه بذِكْر ربِّه في كلِّ حين، ومشغوفًا بالصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ علىٰ سائر أحواله، فأين التَّخصيص؟

وهل نحن نخصِّص ليلة النِّصف من شهر شعبان بالذِّكْر والصَّلاة ثم نتوقَّف عن ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فعملنا هذا بدعة، ولكن عملنا ديمة ومتواصل، فإذا

(1) رواه الترمذي والحاكم وأحمد وغيرهم، واللَّفظ للترمذي.

اجتهدنا في العبادة والطَّاعة وسائر النَّوافل في هذه اللَّيلة الفاضلة أكثر فلا حَرَجَ علينا، ولا اعتراض لعاقل علىٰ هذا إذا كان عالمًا مُنصِفًا.

وَهَبْ أنَّ أحدًا من المسلمين كان لا يؤدي الصَّلاة، ولا يصوم، ولم يكن مُقبِلا علىٰ مولاه بالكُلِّية، ثُمَّ بدا له في هذه اللَّيلة المباركة أنْ يغتسلَ، ويعقدَ توبة نصوحًا، و يُقْبِلَ علىٰ ربِّه، فمَن يجرؤ منَّا علىٰ أن يقول له لا يجوز لك أن تعقدَ توبة إلىٰ الله في هذه اللَّيلة بحُجَّة تخصيص هذه اللَّيلة بالتَّوبة؟ بل الواجب علينا أنْ نحثَّه كي يُقْبِلَ علىٰ ربِّه، ونمدُّ له يد المساعدة، ونقدِّم له العون ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلاً، ونُوصِيه دائمًا بالإقبال علىٰ الله بصِدق النِّية وإخلاص العمل والجدِّ في الطَّاعات، فعسىٰ أن تكون توبتُه في تلك اللَّيلة سببًا لسعادته في دنياه وأخْراه، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

إذن علىٰ المُسْلِم أنْ يغتنمَ الأوقات الفاضلة كليلة النِّصف من شهر شعبان، لأنَّها تتضاعف فيها الحسنات والقُربات، وجدير بالمسلمين في كلِّ مكان أن يجتمعوا في مثل هذه المناسبات لتلاوة القرآن الكريم ومُدارسة أحاديث النَّبيِّ ﷺ وسيرته العطرة، والحديث عن فضائل شهر شعبان وخصوصًا ليلة النِّصف منه التي من أسمائها ليلة البراءة، ولا يحقُّ لعاقل أن ينهىٰ مُسلِمًا عن ذِكْرِ الله ﷻ، وعن الاجتماع في مجالس الذِّكْر والعِلْم، ومجالس الهداية والرَّشاد.

إنَّ الإنكارَ علىٰ الذين يجتمعون في الأوقات الفاضلة من شأنه أنْ يصرفَ هِمَمَ المُسلِمين عن إحياء المناسبات الجليلة والتي تشتمل علىٰ عِبَر بليغة وعِظات مفيدة وذكريات نافعة، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، هذا وإنَّ الغايةَ من الاجتماعات التي تنعقد لإحياء الأوقات المباركة الفاضلة هي العبادة، وأشرف مقامات الإنسان عند ربِّه هو مقام العبودية، ولذا مدح الحقُّ ﷻ النَّبيَّ ﷺ بالعبودية فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

وتحقيق العبودية لله أمر عظيم وشأن جليل، ولو أنَّ المسلمين حقَّقوا العبودية في أنفسهم لله لما رأيتهم يتناحرون ويتخاصمون، ولما فشا بينهم البغض والحِقد والعُجب والحسد والكِبْر وسائر الصِّفات الذَّميمة، لأنَّ من ثِمار الصَّلاة أنها تمنح المسلم التَّواضع وترفع عنه الكِبْر والعُجْب، وتُزكِّي النّفوس من المفاسد والعِلل، وتُطَهِّر القلوب من الأمراض والأسقام، وهكذا الشَّأن بالنِّسبة لكلِّ العبادات، فمِن ثمارها تزكية النُّفوس وطهارة القلوب وتحقيق العبودية لله جلَّ جلاله.

إذن هناك فوائد جمَّة في الاجتماع علىٰ الذِّكْر وتلاوة كتاب الله، ومُدارسة العِلْم والإكثار من الصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ وخاصَّة في الأوقات الفاضلة كشهر شعبان الذي يُسَمَّىٰ شهر النَّبيِّ ﷺ، لأنَّه ذُكِرَ أنَّه نزل فيه قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

وممَّا سبق بيانه علينا أن نكون مُنتبهين وفطناء، ولا نغترَّ بأقوال مَن يريد صَرْفَ هِمَمِنَا عن ذِكْرِ الله والزَّجِّ بنا في غياهب الغفلة، وإبعادنا عن الطّاعات والقُربات، ولا ينبغي علينا أنْ ننخدع لأقوال مَنْ يُنكِرُ علينا اجتماعاتنا في مجالس الذِّكْر والعِلْم، ومجالس الهداية والرَّشاد، وإحياء الأوقات الفاضلة كليلة النِّصف من شهر شعبان التي وردت في حقِّها أحاديث صحيحة تُبيِّن فضلها وقدْرها عند الله، ويجب علينا أنْ نتركَ كلام من يُنْكِرُ هذا الأمر، ولا نأخذ به، ونعضُّ بالنَّواجذ علىٰ كلام المصطفىٰ ﷺ الذي يُؤْخَذُ به، ولا يُرَدُّ أبدًا.

وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه: «كلُّ كلام مأخوذٌ منه ومتروكٌ إلاَّ كلام صاحب هذا القبر»، ولذا يجب علينا الاهتمام بالطَّاعات والقُربات والنّوافل في سائر الأوقات، ولاسيَّما في الأيَّام واللَّيالي الفاضلة كليلة النِّصف من شعبان وغيرها، لأنَّ الثَّواب فيها يتضاعف، وفضل الله فيها واسع، فلنغتنمها للتقرُّب إلىٰ الله بالطَّاعات والقُربات، وكيف لا نتقرَّب إلىٰ الله ولا رحمة من غيره، فإنَّه هو الرَّحيم، ولا ساتر من دونه فإنه هو الستَّار، ولا لُطْفَ من سواه فإنَّه هو اللَّطيف، ولا قُدْرة إلاَّ منه فإنَّه هو القادر.

إنَّ المؤمن من طبيعته السَّعي بكلِّ جِدٍّ لتحقيق العبودية لله، إذ هذه وظيفته في الحياة، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58]، والمؤمن لا يترك فرصة من عمره إلا ويقضيها فيما يُقَرِّبه إلىٰ مولاه، وهو أينما حلَّ وارتحل في معيَّة الله يذكر ربَّه بقلبه، ويلهج لسانه بتسبيح الحقِّ وتنزيهه.

وقد قلنا مِرارًا أنَّ من فضل الله تبارك وتعالىٰ علىٰ المؤمن أنَّه بمجرَّد أنْ يتلفَّظ بالشَّهادتين ويقول: «آمنتُ بك يا ربّ»، يقول له ربُّه: «هذه مفاتيح القُرب خُذْها بقوة، وتقرَّب إليَّ أينما كنتَ وحيثما شئتَ، وأنت الذي تُحَدِّدُ القُربة التي تريدُ أن تتقرَّبَ بها، وأنت الذي تُحَدِّدُ زمان ومكان هذه القُربات». أليس هذا هو الفضل العظيم؟ بلىٰ، وهذا من فضل الله ﷻ ومَنِّه وكَرَمِهِ علىٰ المؤمن الذي سمَّاه ربُّه بهذا الاسم، لأنَّه آمن به، وما دام قد آمن به سمَّاه المؤمن، فما معنىٰ المؤمن؟

معناه أنَّه أمِن من عذاب الله ما دام يعمل بمقتضىٰ ومُتطلبات إيمانه بخالقه ومولاه، وهو مِن أهل السَّعادة في الدَّارين، وهو ممَّن حقَّق العبودية في نفسه لله، فكيف يخاف العذاب؟ وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ مِن عبادِ الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شُهداء، يغبِطهم الأنبياء والشُّهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالىٰ، قالوا: يا رسول الله تُخبرنا مَن هم؟ قال: هم قوم تحابُّوا بروح الله علىٰ غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو الله إنَّ وجوههم لنور، وإنَّهم علىٰ نور، لا يخافون إذا خاف النَّاس، ولا يحزنون إذا حَزن النَّاس، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1].

وكيف يخاف المتحابُّون في الله، وقد جمعهم الحقُّ جلَّ جلاله علىٰ لا إله إلاَّ الله، وهم مِن أهل لا إله إلاَّ الله وقد بشرهم النَّبيُّ ﷺ فقال: «**ليس علىٰ أهل لا إله إلاَّ الله وحشة في قبورهم ولا مَنْشَرهم، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل**

(1) رواه أبو داود.

لا إله إلاَّ الله وهم ينفضُون التُّرابَ عن رؤوسهم ويقولون: الْحَمْدُ للهِ الذي أَذْهَبَ عنَّا الْحَزَنَ»[1].

وفي هذا المجال قد يأتي بعض المُعترضِين علىٰ الأولياء والذين يُنْكِرون الولاية الخاصَّة فيقول: كلُّ مؤمن تقي، فنقول لمثل هذا القائل: إنَّ كلامَكَ صحيحٌ، وكلُّ مُؤمنٍ تقيٌّ، ولكن التَّقوىٰ سُلَّمٌ ودرجاتٌ والدَّليل علىٰ ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، ولو كانت التَّقوىٰ درجة واحدة لقال الله ﷻ في الآية: تقيُّكم، ولكنَّه قال: ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وهذا يعني أنَّه بيَّن لنا بأنَّ التَّقوىٰ سُلَّمٌ يشتمل علىٰ درجات، وأنَّ في المؤمنين التَّقيُّ، وفيهم الأتقىٰ، وهكذا هناك التَّقيُّ والأتقىٰ، فإذا سَلْسَلْتَ القضيَّة من أدنىٰ تقيٍّ إلىٰ مَن هو أتقىٰ منه فستنتهي قضيتُنا إلىٰ أتقىٰ قلب رجل وهو النَّبيُّ ﷺ الذي قال: «**أما واللهِ إنِّي لأخْشاكم لله وأتقاكم له ...**»[2].

إن الذين يُنْكِرون الولاية الخاصَّة لا يُدرِكون حقيقة قولهم هذا، لأنَّهم يعترضون علىٰ الله، ويا أخي هل أنت تتحكَّمُ في الله؟ وهل تفرض علىٰ الحقِّ ﷻ أن يختارَ الأولياء علىٰ حسب ما تهواه نفْسُك ومع ما يتفق مع مزاجك؟ لا، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]، فالله ﷻ له أن يختار ويصطفي من عباده من يشاء، والذين يسعون لتحقيق العبودية في أنفسهم لله ﷻ هم المُنِيبون له، يُيَسِّر لهم السَّبيل لذلك ويهديهم، وإن كانوا في محلِّ اجتباء كذلك، ولكن اجتباءهم جاء عن طريق الإنابة لله.

والإنابة تعني الرُّجوع إلىٰ الله، والتَّوبة إليه، والصِّدق في التَّوجُّه إليه، والصِّدق معه ومع خَلْقِه، والجِدُّ في تحقيق العبد العبودية في نفسه لله، وهناك صِنفٌ آخر من أولياء الله تختطفهم يد العناية الرَّبَّانيَّة فيجتبيهم الحقُّ إلىٰ حضرته

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الكبير والبيهقي في شعب الإيمان، واللَّفظ للطَّبراني.

(2) رواه البخاري في صحيحه.

دون قيد ولا شرط، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، والله ﷻ له أنْ يفعلَ ما يشاء في مُلْكِه بدون مُنازع، فباستطاعته أنْ يُعذِّبَ المُطيعَ ويرحمَ العاصي، فإذا عذَّب أحدًا فبمحض العَدْل، وإذا رحِمَ أحدًا فبمحض الفضل، وليس هناك مَن يُنازعه في أمره أو يُعارضه في حُكْمِه، وليس هناك من يتدخَّل بين الله ﷻ وبين عباده.

وقد حُكي أنَّ عبدًا من الأولياء الصَّالحين كان مريضًا طريح الفِراش، فذهب لعيادته جماعة من أحبابه، وعندما رأوا حاله شرعوا في الدُّعاء له ففطِن من نومه، وقال وهو في حالة غضب: مَن هذا الذي يتدخَّل بيني وبين ربِّي؟ وقد يعترض أحدنا علىٰ مثل هذه القضيَّة ويقول: وكيف أنَّ هؤلاء يدعون بالخير لهذا الوليِّ وهو غضبان، والحال أنَّ الدُّعاءَ للمريض مطلوب ومُستحبٌّ شرعًا؟ فنقول: إنَّ هذا الوليَّ الصَّالحَ وصل إلىٰ مرتبة من اليقين بحيث أصبح يرىٰ أنَّ الدُّعاء اعتراض علىٰ الله فيما يريده بعبده.

وأمَّا نحن فلا نرىٰ الأمر بهذه الطريقة التي يرىٰ بها هذا الوليُّ الصَّالحُ، لأنه يرىٰ أنَّ المرض ابتلاء من الله ﷻ له للتَّطهير من الذُّنوب ليخرج من الدُّنيا وليس عليه ذنْب يقابل به مولاه، وقد سأل أحد الصَّحابة الكِرام رضي الله عنهم النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ النَّاس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياءُ ثُمَّ الصَّالحون ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ مِن النَّاس، يُبْتلَىٰ الرَّجلُ علىٰ حسب دينه، فإنْ كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإنْ كان في دينه رِقَّة خُفِّفَ عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتّىٰ يمشي علىٰ ظهر الأرض ليس عليه خطيئة**»[1].

إذن مِن هذا المُنطلق قال الوليُّ الصَّالحُ لزائريه: مَن هو الدَّخيل بيني وبين ربِّي؟ لأنَّه يعلم يقينا أنَّ الله ﷻ عندما يبتليه بالمصائب فإنَّما يُريد أنْ يُرَقِيه إلىٰ مقام الصَّابرين ليجزيه الثَّواب الجزيل، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، ومن كرم الله ﷻ علىٰ المؤمن أنَّه يُجازيه عن كل بلاء يصيبه

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده.

مهما كان ذلك البلاء صغيرًا، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**ما مِن مُسْلِمٍ يُشَاكُ شوكة فما فوقها إلا كُتبتْ له بها درجة، ومُحيتْ عنه بها خطيئة**»[1].

وإذا عُدنا إلىٰ قِصَّةِ ذلك الوليِّ المريض في فراشه والذي قال لمن زاره ودعا له: مَن هو الدَّخيل بيني وبين ربِّي؟ فإنَّ له دليلا من الشَّرع يستند إليه، فقد رُوي أنَّ النُّمرودَ الظَّالم عندما أراد أن يُلقي سيِّدنا إبراهيم عليه السلام في النَّار بواسطة المنجنيق استقبل جبريل عليه السلام الخليل بين المنجنيق والنَّار فقال السَّلام عليك يا إبراهيم: أنا جبريل ألك حاجة؟ قال: أمَّا إليك فلاَ، وأمَّا إلىٰ الله فبلىٰ، فقال له: سله فقال: حسبي مِن سؤالي عِلْمُه بحالي، ولمَّا قال الخليل عليه السلام ذلك، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [**الأنبياء: 69**]، ولهذا الأمر شاهد قرآني ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [**غافر: 44**].

ومِن هذا الباب أي باب تفويض الأمور إلىٰ الله قال ذلك الوليُّ الصَّالحُ كلامه الذي سبق، ولكنَّنا نحن مِن قِلَّة فهمنا لدقائق الأمور وأسرارها نقول: وكيف أنَّ ذلك الوليَّ يغضب علىٰ من يدعو له، والحقيقة أنَّه فهم ما لم تفهمه أنت لشدَّة صِلته بربِّه، لأنَّه لا يستوي الموصول والمقطوع، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولا يستوي العارفون بربِّهم وغيرهم، ولهذه القضية دلائل شرعية قوية منها هذا الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تبارك وتعالىٰ: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عن مَسْألتي أعطيتُه أفضلَ ما أعْطِي السَّائلين**»[2].

ولنعد إلىٰ الحديث عن فضائل شهر شعبان، فقد قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها «كان أحبّ الشُّهور إلىٰ رسول الله ﷺ أنْ يصومه شعبان، ثم يصله برمضان»[3]، ونحن نُحِبُّ ما أحبَّه نبيُّنا ﷺ، لأنَّ كلَّ الإنعام والإكرام الإلهي، وكلَّ العطاءات والمَكْرُمَات الرَّبَّانيَّة، إنَّما وصلتْ إلينا علىٰ يد رسول الله ﷺ ومِن حقِّنا

(1) رواه مسلم.
(2) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.
(3) رواه الحاكم في المستدرك.

أن نُحِبَّ كلَّ شيء أحبَّه رسول الله، ونكرهُ كلَّ أمْرٍ كَرِهَهُ، وأن نعتزَّ بكلِّ ما اعتزَّ به، ونُعظِّم كلَّ ما عظَّمه، وكيف لا وهو أولىٰ بنا من أنفسنا؟ ألم يقل الحقُّ تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: 6].

وورد في حديث عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليه من والِده وولَده والنَّاس أجمعين**»[1]، وعن عبد الله بن هشام قال: «كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: والله لأنتَ يا رسول الله أحبّ إليَّ مِن كلِّ شيء إلاَّ نفْسِي، فقال النَّبيُّ ﷺ: **لا يؤمِنُ أحدُكم حتّىٰ أكونَ عنده أحبَّ إليه من نفْسِه**، قال عمر: فلأنت الآن والله أحبّ إليَّ من نفْسي، فقال رسول الله ﷺ: **الآن يا** عمر»[2].

ومِن خلال هذا الحديث الشَّريف يتبيَّن لنا أنَّ سيِّدنا رسول الله ﷺ قد رقَّىٰ سيِّدنا عمر في تلك اللَّحظة إلىٰ الإيمان الكامل، لأنَّ سيِّدنا عمر قال بعد كلام النَّبيِّ ﷺ مباشرة: فلأنت الآن والله أحبّ إليَّ مِن نفْسي، وكأنَّه لم يبق لسيِّدنا عمر إلا تلك الخطوة ليكمل إيمانه، فأكملها له النَّبيُّ ﷺ وبشَّره بقوله: الآن يا عمر، أي الآن تمَّ إيمانُك يا عمر، ويعني به الإيمان الكامل، وليس الإيمان الجزئي كإيمان البعض منَّا الذي يشتغل بمحبَّة نفْسِه وولده وأهله، وينسىٰ محبَّة نبيِّه الكريم ﷺ ولا يُكْثِرُ مِن الصَّلاة عليه.

إن الذي لا يُصلِّي علىٰ النَّبيِّ ﷺ عبدٌ محرومٌ من صلاة الله عليه، ويُحْرَمُ كذلك من رَدِّ النَّبيِّ ﷺ، لأنّه قد جاء في الحديث: «**من صلَّىٰ عليَّ واحدةً صلَّىٰ اللهُ عليه عشْرًا**»[3]، وورد في حديث آخر: «**مَا مِن أحَدٍ يُسَلّمُ عليَّ إلاَّ ردَّ الله عليَّ روحي حتَّىٰ أرُدَّ عليه السلام**»[4]، وهل هناك مَن هو أشقىٰ مِن الذي يحرمُ نفْسَه من أنْ

(1) رواه البخاري.
(2) رواه البخاري وأحمد واللَّفظ لأحمد.
(3) رواه مسلم وأبو داود.
(4) رواه أبو داود والبيهقي.

يُصلِّي عليه ربُّه، أو يردَّ عليه سلامه النَّبيُّ ﷺ من قبره الشَّريف، والصَّلاة من الله علىٰ عباده رحمة، ولكنَّها في هذه الموضع نوعٌ خاصٌّ من الرَّحمة، لا يأتي إلاَّ من تلك الطَّريق، أي طريق الصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وإلاَّ لن تحصل هذه الرَّحمة الخاصَّة.

والعجب ممَّن ينهىٰ غيره عن الإكثار من الصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ويا أخي: كلُّ الإنعام الذي نحن فيه هو من الله ﷻ عن طريق رسول الله ﷺ، فمِن حقِّنا أنْ نُصلِّي علىٰ النَّبيِّ ونمدحه ونحبّه، بل ومِن حقِّنا أنْ نغيبَ عن عقولنا في محبَّتنا له، فهو محبوبنا الأعظم، وهو الذي جاءنا بالقرآن والسُّنَّة، وهو الذي هدانا الله تبارك وتعالىٰ به إلىٰ الإسلام والهدىٰ والرَّشاد، أفلا نفرح بالرَّحمة المُهداة؟! ألم يقل الحقُّ جلَّ جلالُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

اللَّهمَّ صلِّ علىٰ حبيبك المُصطفىٰ ونبيِّك المُقْتفىٰ ووليِّك المُجْتبىٰ، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالَمين.

obeikandl.com

الدَّرس الثَّالث

ليلة السَّابع عشر من شهر رمضان

(غزوة بدْر الكُبرىٰ)

بعد تلاوة مباركة عطرة لأحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [**آل عمران: 123-126**]، قال الشَّيخ الجليل مُربِّي المُريدين وقُدوة السَّالكين عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسني الشَّريف رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، اللَّهمَّ صلِّ علىٰ سيِّدنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، اللَّهم لا سَهْلَ إلاَّ ما جعلته سهلاً، وأنت تجعلُ الحزن سهلا إذا شئت يا ربَّ العالَمين، **أمَّا بَعْدُ:**

نحن في ليلة السَّابع عشر من شهر رمضان المُعظَّم، وهي ليلة وقعتْ فيها غزوة بدر الكبرىٰ، تلكم الغزوة العظيمة التي بيَّنتْ كيف ستكون حياة المُسلِمين في المستقبل، وبماذا يكون نصرهم، وكيف ينتصر الحقُّ علىٰ الباطل بقوة الإيمان، وليس بقوة السِّلاح أو بكثرة العَدَدِ والعُدَّة فقط، والحقيقة أنَّ هذه الذِّكْرىٰ هي ذِكْرىٰ دائمة، وليست ذِكْرىٰ سنوية، لأنَّ ما وقع فيها من وقائع وحوادث يجب أنْ يعتبرَ بها المسلمون ويتشبَّثون بها ويؤمنون كلَّ الإيمان بأنَّ الحقَّ هو المنتصر علىٰ الباطل، ولا يمكن بأيِّ حال من الأحوال أن ينتصر الباطل علىٰ الحقِّ، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [**الإسراء: 81**].

لقد كانت هذه الواقعة العظيمة في شهر رمضان والمسلمون صائمون، فما الحكمة من ذلك؟ إنَّ الحكمة من وراء ذلك أنَّ الله ﷻ أراد أن يشعر المسلمين بأن يكونوا دائمًا علىٰ جِدِّية متواصلة من أمرهم، ولا يجعلون من شهر الصِّيام شهرًا للكسل والدَّعة والتَّهاون والكسل، ولا يعتقدون أنَّ شهر الصِّيام شهر لكثرة الأكلات وتحضير الموائد المتنوِّعة عند الإفطار، فكلُّ هذه دعاوي باطلة لا أساس لها من الصِّحة، بل العكس فلقد كان المسلمون حين ذاك في عزِّ الصَّيف الحارِّ، وهم يقاتلون عدوَّهم، فمنهم الصَّائم صاحب العزيمة الشَّديدة، ومنهم المُفْطِر الذي يأخذ بالرُّخص عند الحاجة الماسَّة والضَّرورة المُلِحَّة، ولا يعترض أحدهم علىٰ الآخر، لأنَّ الصَّحابة الكرام (رضي الله عنهم جميعا) لم يكن حالهم كحالنا اليوم من الخِلاف والخِصام، بل كانوا علىٰ وِفاقٍ في كلِّ أمورهم، لأنَّهم يُدرِكون أنَّ الإسلام رخَّص الإفطار في السَّفر، ورغَّب في الصِّيام كذلك.

فإذا كنتَ تقوىٰ علىٰ الصِّيام في السَّفر وصمتَ صحَّ صومك، وإذا أفطرتَ فالشَّارع الحكيم قد رخَّص لك ذلك، ولا حَرَجَ عليك، فقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 183، 184]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ لستٍّ عشرة مضتْ من رمضان، فمنَّا مَن صام، ومنّا مَن أفطر، فلم يعبْ الصَّائم علىٰ المُفْطِر، ولا المُفْطِر علىٰ الصَّائم»[1].

إذن لقد وقعتْ غزوة بدر الكبرىٰ في شهر رمضان المُعظَّم، فما الحكمة من شهر الصِّيام هذا؟ لقد كان النَّبيُّ ﷺ قبل نزول الوحي يتعبَّد شهرًا في غار حِراء، وكأنَّه كان يُعِدُّ لأمَّته هذا فنحن أيضًا يُعَدُّ هذا الشَّهر الكريم فُرصة نُقوِّم فيها أنفسنا، ونُصلِح فيها من أحوالنا، ونخلو فيها بربِّنا للتَّأمُّل والفِكْر ومداومة الذِّكْر، وكلُّ ذلك

(1) رواه مسلم.

اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ الذي كان يبحث عن الحقِّ الذي يريد أن يرشد إليه قومه من قريش وسائر العرب، لأنَّه عربي منهم، وقد قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

إنَّ هذا الشَّهر شهر مبارك، ولكنَّنا للأسف الشَّديد حوَّلناه إلىٰ شهر الأكلات، والغربيون في هذا الشَّهر يكونون أسخياء علىٰ المسلمين فيُصَدِّرون لهم كلَّ ما تشتهيه النَّفس، وما يلذُّ ويطيب من مأكولات وأطعمة شتَّىٰ ومشارب متنوعة، وهدفهم من كلِّ ذلك إفساد الصِّيام علىٰ المسلمين، ولقد وصلوا فعلا إلىٰ مبتغاهم، لأنَّنا سلكنا منهجهم، وأحببنا نمط حياتهم، واتَّبعناهم واقتدينا بهم، وشُغِفنا بثقافتهم، وصار الكثير منَّا يتمنىٰ أن يعيش عيشتهم، ويُربِّي أولاده تربيتهم، وأصبح لدىٰ الكثير منَّا ميل قلبي إليهم.

لأنَّ الإنسان عندما يميل إلىٰ شيء ما يحبُّه، ويدعو إليه، فإذا دعونا أبناءنا أنْ يتعاملوا كالغربيِّين، وأن يأكلوا مثلهم، وأن يكونوا في هيئتهم مثلهم، فهذا يدلُّ علىٰ أنّنا نميل بقلوبنا إليهم سواء شعرنا أم لم نشعر، وهذا نوع من الارتداد عن الإسلام، ولقد حذَّرنا الله ﷻ من الرُّكون والسُّكون والميل إلىٰ كلِّ من ليس علىٰ ديننا فقال وقوله الحقُّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113].

إنَّ الميل إلىٰ كلِّ مَن ليس علىٰ عقيدتنا وديننا ناتج عن حُبٍّ لهم تكنُّه قلوبنا، وقد يوجد منَّا مع الأسف الشَّديد من ينظر إلىٰ أنَّ الإسلام ليس فيه تربية للبدن، ولا يُربِّي الرُّوح، ولا يُزكي الأخلاق، ولا يُنَمِّي القِيَّم، ولذلك يحرص بعضنا أن يكون ولده كالغربيِّ في هيئته وفي لباسه بدعوىٰ التَّقدُّم، حتَّىٰ أصبح بعض شبابنا يتشبَّهون بالنِّساء، وصار البعض من شابَّاتنا يتشبَّهن بالرِّجال مشيًا علىٰ عادات الغرب.

وقد لُعن من هذا حاله علىٰ لسان رسول الله ﷺ، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «لعن رسولُ الله ﷺ المُتشبِّهين من الرِّجال بالنِّساء، والمُتشبِّهات من النِّساء بالرِّجال»[1]، ولقد حذَّرنا النَّبيُّ ﷺ من الاقتداء بمن هم علىٰ غير مِلَّتِنا وديننا، والسَّير علىٰ منهجهم، واقتفاء أثرهم، فقال ﷺ: «**لتتَّبعن سُنن الذين من قبلكم شِبرا بشِبر وذراعا بذراع، حتَّىٰ لو دخلوا في جُحْر ضَبٍّ لاتَّبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنَّصارىٰ؟ قال: فمَن؟**»[2].

والسَّير علىٰ منهج الغرب في كلِّ الأمور ليس من التّقدُّم في شيء، ومن نتائج التَّأسِّي بالغرب أنَّ المادِّيات ملكتْ قلوب البعض منَّا، حتَّىٰ أصبح الدِّين آخر ما يُفكِّر فيه، فلا يهتمُّ بالعبادات، ولا يُكثرُ من الطَّاعات، وقد يصل الأمر إلىٰ تضيِّيع الفرائض، وكلُّ هذا بحُجَّة أنَّه مشغول، ولكن هو مشغول علىٰ مَن؟ مشغول علىٰ الذي خَلَقَه وسوَّاه، ووهب له سمعًا وبصرًا، ويدًا يبطش بها ورجلا يسعىٰ ويمشي بها، ومَنَحَهُ قوَّة وفكرًا وعقلاً، وأعطاه جسدًا، ونفخ فيه روحًا يحيا بها هذا الجسد ويتحرَّك، ويتفاعل بها مع الكائنات، فهل يُعَدُّ الإنسان المشغول عن ربِّه إنسانا لو نظرنا إليه بعين الحقيقة؟ لا، لأنَّ مثل هذا الإنسان إنسان بحيوانيته.

وحقيقة الإنسان ليستْ بالنَّوع الحيواني الذي تشاركنا فيه الحيوانات، بل الإنسانية الحقيقية التزام مستمر، وعمل صالح دؤوب، وجِدٌّ في طلب العِلْم، وخصوصًا العِلْم الذي يقيك النَّار، ويُجنِّبك عذاب الجبَّار، ويُقرِّبك إلىٰ الله، ويُحَبِّبُ الله لك، ويُحَبِّبُ الله فيك، لأنَّ مصيرك إلىٰ ربِّك أحببتَ أم كرهتَ، ولا بدَّ أن تعود إليه إمَّا محبوبًا سعيدًا مُساقًا إلىٰ الجنَّة، أو منافقًا شقيًّا مُساقًا إلىٰ النَّار، والعياذ بالله.

إنَّ المادِّيات ملكتْ قلوبنا، ولكي يخرجنا الله ﷻ من سجن هذه المادِّيات فرض علينا صيام شهر رمضان، وكلمة رمضان جاءت من الرَّمضاء، وهو التُّراب

(1) رواه البخاري.

(2) رواه مسلم.

السَّاخن كالتُّراب الذي تتركه النَّار، أي أنَّ في رمضان تُحْرَقُ الذُّنوب، ويمدُّنا الحقُّ ﷻ فيه بإمدادات روحية لنقوىٰ علىٰ العبادة في بقية الشُّهور، ونخرج منه بزاد من التَّقوىٰ يكون لنا جُنَّة ووقاية من المعاصي، ولذا قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

والصِّيام شهر تربية تتربَّىٰ فيه النَّفس علىٰ تَرْكِ ما أَلِفَتْهُ من الشَّهوات، وفي شهر رمضان يتحمَّل الصَّائم الجوع والعطش، ويترك ما كان حلالاً، وفي الصِّيام الخير الكثير للعباد، فقد ورد في حديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لو يعْلَمُ العبادُ ما في رمضان لتمنَّتْ أمَّتي لأن يكون رمضان السَّنة كلَّها**»[1].

إنَّ للصِّيام الحقيقي ثمرة يشعر بها الصَّائم وهو يؤدِّي هذه العبادة، والله ﷻ جعل الإمساك في رمضان عبادة، فبمجرَّد أنْ تنوي الصِّيام وتبدأ بالإمساك عن الأكل والشُّرب وكلِّ المفطرات تدخل في عبادة الصِّيام، وعندما يحين وقت الغروب يصبحُ ذلك الأكل الذي حُرِّم عليك في النَّهار عبادة لله، وبعد ذلك تدخل في عبادة أخرىٰ وهي قيام اللَّيل الذي سنَّه الرَّسول ﷺ لأمَّته بقوله: «**يا أيُّها النَّاسُ قد أظلَّكم شهر عظيم، شهر مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوُّعًا ...**»[2]، وصلاة القِيام هي صلاة التَّراويح التي رغَّب فيها النَّبيُّ ﷺ ليكون للمؤمن خُلوة يختلي فيها بربِّه شهرًا كاملاً نهاره صيام وليله قيَّام.

إذن إمساك الصَّائم من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشَّمس عبادة، وإفطاره حين الغروب عبادة، ومشيه من البيت إلىٰ المسجد والرُّجوع عبادة، وقيام ليله عبادة، ونومه بنيَّة استرجاع بدنه لقوَّته ليواصل طاعة ربِّه عبادة، فيا سعادة المؤمن في شهر رمضان فهو في عبادة دائمة، ويجب عليه أنْ يصون هذه العبادة العظيمة عن الهَذَر، وهو الكلام الذي لا يعبأ به، واللَّغو وهو كلُّ ما لا يعتدُّ به من كلام أو غيره، وكلُّ

(1) رواه أبو نعيم الأصبهاني في كتاب معرفة الصَّحابة.

(2) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.

ما لا يحصل منه على فائدة ولا نفع، وقد قال الله سبحانه ﷻ في كتابه الكريم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 1-3]، وقال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمِنُ بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمُت**»[1].

والصِّيام يُربِّي المُسلم عن الابتعاد عن مواطن اللَّغو ونبذ الخصومات، وقد ورد في حديث قدسيٍّ قول رسول الله ﷺ قال الله ﷻ: «**كلُّ عمل ابن آدم له إلاَّ الصِّيام فإنَّه لي وأنا أجزي به، والصِّيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يصخب، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمّد بيده لخُلوف فم الصَّائم أطيب عند الله من ريح المِسْك، للصَّائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربَّه فرح بصومه**»[2].

إنَّ شهر رمضان شهر المؤمنين، فيه يتربون على تَرْكِ عوائدهم السَّيِّئة التي اعتادوها وألِفوها خلال سائر السَّنة، ومن هذا المنطلق تحدَّث القوم الصُّوفيَّة رضي الله عنهم عن الخُلوة واتَّخذوها وسيلة لتربية مُريديهم وتلامذتهم، فيتركونهم مدَّة يخلون فيها بربِّهم، ويتجرَّدون عن المادِّيات والحسِّيات، لتصفو أحوالهم وتتطهَّر قلوبهم، وتتزكَّى نفوسهم، ولكن الشَّيطان أخرج البعض منَّا عن الهدف المنشود من شهر الصِّيام، فصار لا يفكِّر إلاَّ فيما يدَّخره لشهر الصِّيام، وما يتناوله من أطيب المأكولات، وما يشربه من ألذِّ المشروبات، وما يُعِدُّه من ألوان الموائد المختلفة.

وهذا يعني أنَّ الشَّيطان يريد أن يُفْسِدَ علينا صيامنا ويعلن علينا حربًا عن طريق الإسراف في الطَّعام والشَّراب، وذلك ليدُبَّ فينا الكسل والتَّهاون فلا نُعطي الصِّيام حقَّه بالنَّهار، ولا نؤدِّي قيام اللَّيل كما ينبغي قيامه، فلا تظهر ثِمار الصِّيام في معاملاتنا وتصرفاتنا، وبالتَّالي تضيع الحِكمة البالغة من فريضة الصِّيام ألا وهي تحلِّي الصَّائم بالتّقوى، لأنَّ الهدف من الصِّيام ليس الامتناع عن الأكل والشّرب

(1) رواه مالك في الموطأ والبخاري ومسلم وغيرهم.

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فقط وسائر المفطرات، وإنَّما الهدف منه حصول ثِمار هذه العبادة من تقوىٰ وَوَرَعٍ، وحُسْنِ خُلُقٍ وطيب معاملة، وحُسْن مراقبة الله وحضور قلب معه، وترك الآثام من قول الزُّور والكذب والبهتان، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**من لم يَدَعْ قول الزُّور والعمل به فليس لله حاجة في أن يَدَعَ طعامه وشرابه**»[1].

إذن يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ للصِّيام بشروطه الظَّاهرة والباطنة تأثيرًا بليغًا علىٰ حياة الصَّائم، فيشعر بالخشوع لله في قلبه، ويحسُّ بصفاء حاله مع ربِّه، ويلحظ تحسُّنا في معاملاته مع غيره، ويظهر أثر ذلك الصِّيام علىٰ جوارحه فتكون هيِّنة مُتَلَبِّسَة بطاعة الله، هذا وإنَّ لقيام اللَّيل في شهر رمضان تأثيرًا كبيرًا علىٰ الصَّائم، وهذا واضح تمامًا، وكلُّ من لا يقوم اللَّيل في رمضان ليس له أنوار، وليس لديه وقاية تقيه الاستهتار بالصِّيام نهارًا، والقيام هنا المقصود به أداء صلاة التَّراويح المعروفة التي تُمِدُّ المؤمن بطاقة نورانية روحيَّة تملأ القلوب، وتفيض علىٰ الجوارح، فتصير ذليلة طائعة لربِّها، ولا تقبل الدُّخول في أيِّ شأن يُبعدها عن عبادة الصِّيام أبدًا.

وإذا أردنا أنْ نعرف أثر الصِّيام لدىٰ أحد فلننظر إلىٰ أقواله وأفعاله، ومِن خلالها نُدرِك هل الصِّيَّام جُنَّة ووقاية له من المعاصي والآثام أم لا؟ لأنَّ الصِّيام ليس أمرًا صوريًّا شكليًّا كما يفهم العوام الذين غُلِّقَتْ بصائر قلوبهم فعميتْ، فلا يعرفون من رمضان إلاَّ الإمساك عن الأكل والشُّرب وسائر المفطرات الحسِّيَّة، ولكنَّهم يغتابون غيرهم، ويتكلَّمون في أعراض النَّاس، وينتقل أحدهم من مجلس لغو إلىٰ مجلس لهو، وهو يقول: إنَّما أفعل هكذا كي يَمُرَّ عليَّ الوقت ولا أشعر به، وهو في الحقيقة مغبون، لأنَّ الرَّسول ﷺ يقول: «**نِعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِن النَّاس الصِّحَّة والفراغ**»[2].

(1) رواه البخاري وأبو داود والتّرمذي.

(2) رواه البخاري والتِّرمذي.

والحقيقة أنَّ الذي يتصرَّف تصرُّفات ويقوم بأفعال بنيَّة أنَّه يُضَيِّع الوقت، فإنَّ الوقت هو الذي يُضَيِّعه، والزَّمن مسافر به، وهو راكب في سفينة الزَّمن الذي يسير، والمغبون لا يشعر، ولا يدري، ومن المؤسف حقًّا أنَّ شهر رمضان أصبح بالنِّسبة للبعض منَّا شهر الكسل والوهن والغشِّ، وعدم الإخلاص في العمل، والذي لا يؤدِّي عمله في رمضان كما كان يُؤدِّيه في وقت الإفطار فقد جلب لنفسه ولأهله أكلة من الحرام.

وهذا واضح بيِّن، لأنَّك إذا كنتَ موظَّفًا مثلاً يُطلبُ منك أنْ تعملَ ثمان ساعات في اليوم، ولكنَّك تتهاون في رمضان فتقتصر في عملك علىٰ ثلاث ساعات أو أربعة، فما حُكْمُ أجرتك من هذا العمل؟ إنَّ أجرتَك هذه حرام، وأكلك حرام، ولباسك حرام، فكيف يكون حالك مع الله؟ وما مصير عبادتك؟ وما ثمرة دعائك، وقد قال الرَّسول ﷺ: «**أيُّها النَّاسُ إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبل إلاَّ طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنين بما أمر به المُرسَلين، فقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبرَ، يَمُدُّ يديه إلىٰ السَّماء: يا ربِّ، يا ربِّ ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرامٌ وغُذِي بالحرام، فأنَّىٰ يُستجاب لذلك**»[1].

إنَّ للصِّيام الحقيقي ثمرة تظهر علىٰ الصَّائم في شهر رمضان وبعده، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ**» يعني وقاية وحماية، فالصَّوم يحميك في رمضان وبعده، وأمَّا إذا كنتَ بمجرَّد أن ينقضي شهر الصِّيام تعود إلىٰ الاستهتار، وترجع لعوائد نفْسِك وما ألِفَتْه من الشَّهوات، وتبتعد عن معالم الخير والرُّشد، وتنفر من معالِم التَّقوىٰ، وتجتنب مجالس العِلْم والهداية، فكلُّ هذا يدلُّ علىٰ أنَّ صيامك ليس له ثمرة، أي أنَّه مجرَّد صيام صوريٍّ شكليٍّ، وليس صياما حقيقيًّا واقعيًّا،

(1) رواه مسلم والتِّرمذي وغيرهما، واللَّفظ لمسلم.

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

وهذا يعني أنَّ الهدف من شعيرة الصِّيام هو التَّحلِّي بتقوىٰ الله والمداومة عليها والالتزام بها بعد شهر رمضان، فإنْ حصَّلتَ التَّقوىٰ والتزمتَ بها فصيامك صحيح، لأنَّك قد جنيتَ ثمار هذه العبادة واستفدتَ فعلا منها، وخرجتَ من شهر رمضان بزاد من التَّقوىٰ، وقد كنتَ خلال هذا الشَّهر لا تتوقَّفُ علىٰ الحرام فقط، بل تتوقَّفُ حتَّىٰ علىٰ الحلال كالأكل والشُّرب وجماع الزَّوجة طاعة لله، أليس كذلك؟ ومِن هنا ينبغي عليك الاستمرار بعد الصِّيام علىٰ امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وتُوحِّدُ ربَّك بالعبادة وتُشغلُ نفْسَكَ بالطَّاعة، وتُقْبِلُ علىٰ مولاك بالاستقامة علىٰ شرعه.

لأنَّ المقصود بعبادة الصِّيام هو تقوىٰ الله، وأمَّا مَن يصومُ علىٰ الطَّعام والشَّراب، ولا يتحلَّىٰ بالتَّقوىٰ، فصيامُه مردودٌ عليه بدليل أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعملِ به، فليسَ لله حاجة في أنْ يَدَعَ طعامَه وشرابَه**»[1]، وورد في حديث آخر قوله ﷺ: «**رُبَّ صائمٍ حَظُّهُ مِن صِيامِه الجوعُ والعطشُ، ورُبَّ قائمٍ حظُّه من قيامه السَّهر**»[2].

لقد تبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ المقصودَ بالعبادات هو التَّحلِّي بثمرة تلك العبادات، ونحن نعرف أنَّ البعض من المائلين إلىٰ المادِّيات والعقلانيات، والذين يهتمُّون بالعلوم البحتة لا يقبلون هذا الكلام، ولكنَّنا نقول لهم: إنَّ الأمور العقلية والقضايا العِلْميَّة إذا لم تُقَوَّمْ بقِيَم شرعيَّة وربَّانيَّة، وبقِيَم قرآنيَّة ونبويَّة فهي عين الفساد، بدليل أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أشدُّ النَّاس عذابا يوم القيامة عالِمٌ لمْ ينفعْهُ عِلمُه**»[3].

(1) رواه البخاري والتِّرمذي وأحمد، واللَّفظ للبخاري.

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده والطَّبراني في المعجم الكبير بهذا اللَّفظ.

(3) رواه الطَّبراني في المعجم الكبير.

وكيف ينفع العِلْم صاحبه؟ وهل الهدف من العِلْم جلب الأموال والأرزاق؟ وهل العِلْم رزَّاقٌ من دون الله؟ إنَّ العِلْمَ النَّافعَ هو الذي يُقرِّبُك إلىٰ الله وتنال به رضاه، وليس الهدفُ الأمثلُ من العِلْمِ هو الحصول علىٰ الماديِّات، والعِلْم ليس هو الرزَّاق، لأنَّك إذا قلتَ أنَّ العِلْم هو الذي يرزقني، فمن يرزق الجاهل؟ وإذا ظننتَ أنَّ العقلَ هو الذي يرزقك، فمن يرزق المجنون؟ ولقد جاء العِلْمُ من أجل أن تعملَ به، وتُقبِلَ به علىٰ ربِّك ومولاك، وكلُّ عِلْمٍ لا تُقْبِلُ به علىٰ الله فهو غير مفيد لك لأنَّ الكفَّار عُلماء في شتَّىٰ العلوم، فهل ينفعهم عِلْمُهم عند الله؟ لا، لن ينفعهم ذلك.

وقد يقول قائل: إنَّ الكفار يملكون السَّيَّارات الفخمة، ويسكنون البنايات الشَّاهقة، ويعيشون في أرغد عيش فنقول: إنَّ حال الكفَّار في هذا الشأن يندرجُ ويدخل تحت قول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 3]، وقوله ﷻ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44]، ولقد ميَّز الله ﷻ الإنسان عن الحيوان بالعقل، فأيُّ عقل هذا الذي لا يعقل ربَّه، وأي عقل هذا الذي لا يُحبُّ ربَّه الذي خلقه ولا يعبد مولاه، وصاحب العقل الذي لا يعرف ربَّه مجنون، وليس بعاقل، وكلُّ من لا يُقْبِلُ علىٰ الله بعقله فليس ذا عقل سليم.

ولذلك ربط المولىٰ تبارك وتعالىٰ العقل بالشَّرع، ولم يُعْطِ للعقل الحريةَ التَّامَّة، بل قيَّده بالنُّصوص الشَّرعية، لأنَّه لا حيلة في ضلال العقول، ويجب علىٰ العقل أنْ يخضعَ ويستسلمَ وينقادَ بالكلِّية للنُّصوص الشَّرعية، وينبغي عليك أنْ لا تستعمل عقلك في موقف من المواقف يقول لك ربُّك فيها: افعل كذا كقوله: أقِم الصلاة، فلا تستعمل عقلك هنا، ولا يحقُّ لك هنا إلاَّ التَّسليم والخضوع والخنوع، وقد منحنا الله ﷻ العقل لنعرفَ به البدائلَ، ونُميِّزَ به بين الحقِّ والباطلِ، ونُفَرِّقَ بين الخير والشَّرِّ، ونُدْرِكَ الصَّلاح من الفساد.

إنَّ المرءَ الذي يُبعده عقلُه عن مجالس ذِكْر الله، ويُبعده عن مجالس الرَّشاد والهِداية، ومجالس العِلْم والطَّاعة، ليس بعاقل، ورُبَّ مجنون قريب من ربِّه، بعيد عن النَّاس، أعقلُ منه، ومحبَّة الله واجبة علىٰ المؤمِن، وشرط في صحَّة إيمانه، ومنْ أحبَّ الله ﷻ أطاعه وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه، وإذا أقررتَ بالمحبَّة، واعترفتَ أنَّك مُحِبٌّ، فالمُحِبُّ لمن يحبُّ مُطيعٌ، وإذا وهبك اللهُ الطَّاعة، وحبَّبَها لك فقد ألبسَك حُلَّةَ الرِّضَا، وإذا جعلك الحقُّ ﷻ تستأنِس بالذَّاكرين في مجالسهم، ووفَّقك لارتياد حلقات الذِّكْر، فقد زجَّ بك في روضة من رياض الجنَّة، وذلك مِصداقًا لقول النَّبيِّ ﷺ: «**إذا مررتُم برياض الجنَّة فارتعُوا، قالوا: وما رِياضُ الجنَّة يا رسول الله؟ قال: حِلَقُ الذِّكْر**»[1].

إذن العقل الذي يعقل ربَّه ويحبُّ مولاه هو العقل الثَّاقبُ الذي يُدركُ حقيقة الأمور، ولكنَّ البعض منَّا مشغولٌ عن ربِّه بماله وأولاده، ومُنهمِكٌ طول وقته بهمِّ الرِّزق، والحقيقة أنَّك لستَ رازِّقًا، وإنَّما أنتَ مرزوقٌ وعندما قال الله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، لم يقل الحقُّ جلَّ جلاله: اعملوا عملاً يرزقكم، بل هو عمل من باب الامتثال لأمر الله، والمطلوب من المؤمن أن يعملَ ابتغاء مرضاة الله.

وهذا ما يُفرِّقُ بين المؤمن والكافر في العمل، فأنت عندما تباشر أيَّ عمل يجب أن يكونَ شعورُك منذ أنْ تنطلقَ من بيتك بربِّك الذي أقدرك علىٰ السَّير وعلىٰ الحركة فتعايشه وحده، ولكن إذا عايشتَ في هذا العمل المادِّيات، عاقبك الله فملأ قلبك بحُبِّ هذه المادِّيات، وحرمك من حُبِّه، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ازْهدْ في الدُّنيا يُحبُّك اللهُ، وازْهَدْ فيما في أيدي النَّاس يُحبُّك النَّاسُ**»[2].

(1) رواه التِّرمذي وأحمد وغيرهما.

(2) رواه الطَّبراني في المعجم الكبير بهذا اللَّفظ.

وإذا كنتَ ممَّن يرغبُ في الدُّنيا، ولستَ من الزَّاهدين فيها، فلن تنال محبَّة الله، لأنَّه لا يمكن أن يجتمعَ حُبُّ الدُّنيا وحُبُّ الله في قلب مؤمن أصلاً، ولذا قال الله ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4]، ومن علامات انطماس البصيرة الاهتمامُ بالدُّنيا والرَّغبة فيها وإهمال الآخرة والصُّدود عنها، وقد قال بن عطاء الله رحمه الله في إحْدىٰ حِكمه: «اجتهادُك فيما ضُمِن لك، وتقصيرُك فيما طُلِبَ منك، دليلٌ علىٰ انطماسِ البصيرةِ منك»، وما الذي ضُمِن لك؟ إنَّه الرِّزق لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58].

وإذا قلتَ أنا أَنظِّمُ حياتي، فمن يُنظِّم حياة الحيوانات والحشرات؟ ومن يجلبُ لها أرزاقها؟ ألا ترىٰ أنَّ الحقَّ ﷻ قد قام بكلِّ ذلك؟ وأنت ترىٰ كيف أنَّ كلَّ المخلوقات تسير بنظام بديع، وكلٌّ يعرِفُ مُهِمَّته بدقَّة متناهية جدًّا، لأنَّ هذه المخلوقات دخلتْ في عبادة التَّسخير، وانقادتْ طائعة لربِّها، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: 15]، وقال الحقُّ جلَّ جلاله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

ولو سألتَ نفسك: مَن كان يعتني بك ويُغذِّيك ويُنمِّيك عندما كنتَ جنينا في بطن أمِّك؟ أليس هو الله ﷻ ؟! وهل تظنُّ أنَّ من فعل كلَّ ذلك لك وأنت في بطن أمِّك عاجز أنْ يقوم بشؤونك بعد أنْ أخرجك إلىٰ الوجود وأنت في ضيافته؟ إنَّ هذا الظَّنَّ لا ينبغي أن تظنَّه إنْ كنتَ عاقلاً في حق ربِّك، فإنْ ساورك الشَّكُّ في هذا، فأنت مغرور ومفتون تلهث وراء الدُّنيا، ولن تتحصل عليها، ولن يزيد رزقك فيها علىٰ ما كتبه الله لك أحببتَ أم كرهتَ، ولن تزيد في رزقك بجهدك ولا بعِلْمك ولا بفكرك أبدًا.

وقد تكون تملك الملايير في البنك، ولكن قد يكون نصيبُك من الأكل في يوم ما قطعةَ خبز من شعير، لأنَّك لستَ أنت المُتصرِّف، وتلك الأموال ليستْ لك، بل هي لمالكها الحقيقيِّ والذي يتصرَّف فيها، ويصرِفها كما يشاء، وكما يحبُّ رغم أنفك أنت، ولذلك ورد في الإلهيات عن كعب الأحبار: «**يا بن آدم إنْ رضيتَ بما قسمتُ لك أرحتُ بدنَك وقلبَك وأنت محمودٌ، وإنْ لم ترضَ بما قسمتُ لك سلَّطتُ عليك الدُّنيا حتَّىٰ تركضَ فيها ركْضَ الوحوش في البرِّية، ثمَّ وعزَّتي وجلالي لا تنال منها إلا ما قدَّرتُ لك وأنت مذموم، يا بن آدم كلٌ يريدُك له، وأنا أريدُك لك، وأنتَ تفِرُّ مِنِّي، يا بن آدم ما تُنصفني، يا بن آدم خلقتُك من تراب ثمّ من نطفة ولم يعيِّيني خلقُك، أفعيِّيننني رغيف خبز أسوقه إليك في حين، يا بن آدم إنِّي وحقِّي لك مُحِبٌّ فبحقِّي عليك كنْ لي مُحِبًّا، يا بن آدم خلقتُك من أجلي، وخلقتُ الأشياء من أجلك، فلا تهتك ما خلقتُ من أجلي فيما خلقتُ لأجلك، يا بن آدم كما لا أطالِبك بعمل غدٍ لا تطالبني برزق غدٍ، يا بن آدم لا تخافنَّ فوت الرِّزق ما دامت خزانتي مملوءة، وخزانتي مملوءة لا تنفدُ أبدًا، يا بن آدم لا تخافنَّ من ذي سُلطان ما دام سُلطاني باقيًا، وسلطاني باق لا ينفد أبدًا، يا ابن آدم لا تأمن مكْري حتىٰ تجوز علىٰ الصِّراط**».

إذن مالك لا ينفعك إلاَّ إذا قدَّمتَ به صالحًا لأخراك، ولا ينفعك يوم القيامة إلا سلامة قلبك، مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [**الشعراء: 88، 89**]، وما هو القلب السَّليم؟ هو القلب الذي لم يترك الإنسان فيه شيئًا إلا ربًّا واحدًا، وكلُّ قلب فيه سوىٰ الله فهو مريض، ولذا يجب أنْ تُطَهِّر قلبك من غير حبِّ ربِّك، وقد جاءت عبادة الصِّيام لتُطهِّر جوارحك والتي هي باب القلب الذي يُدخِل عليه الآثام.

فالجوارح السَّبعة هي التي تُدخِلُ الظُّلمات إلىٰ القلب، فاليد تسرق وتلمس المُحرَّمات مثلاً، والعين تنظر نظرة الغِشِّ والمكْر، ونظرة الكِبْر والحسد، ونظرة الازدراء والعُجب، وكلُّ ذلك ظُلمات ونُكَتٌ سوداء في القلب تجعله مُظلِمًا

محجوبًا عن ربِّه، مِصداقًا لقوله جلَّ جلاله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 14، 15]، وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطِيئةً نُكِتَتْ في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نزَع واستغفرَ وتابَ صُقِلَ قلبُه، وإنْ عادَ زيدَ فيها حتَّىٰ تعلُو قَلبَه، وهو الرَّان الذي ذَكَرَه اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»[1].

ولقد جاء الصِّيام لكبْح الجوارح عن المُحرَّمات، واستعمالها في الطَّاعات، فحينما يراقبُ الصَّائم ربَّه وتكون الجوارح مُلتزِمة بأوامر الله، ومجتنبة لنواهيه، امتلأ القلبُ نورًا، وزالت عنه الظُّلمة، فأصبح طاهرًا زكِيًّا، وخرجتْ منه الأمراض والأدران، وامتلأ بحبِّ الرَّحمن، وفاض بالخير علىٰ سائر الجوارح والأركان، فلا ترىٰ المؤمِن إلا مُقْبِلا علىٰ الله، ولا يتحرَّك بكلِّ جوارحه كالسَّمع والبصر إلاَّ في طاعة ربِّه، وقد قال الحقُّ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، ولماذا يكون المؤمن مسؤولاً عن سمْعه وعن بصره وعن سائر جوارحه؟ لأنَّ الله ﷻ يقول لك: إنَّ سمْعَك نعمةٌ أكرمتُك بها، فإمَّا أن تُقبِل بسمعك عليَّ، وإلاَّ أجعل سَمْعَكَ كسمع الكافر، وأجعلك لا تسمع الحقَّ.

وهنا تتجلَّىٰ القهرية من الله، الذي يرزقك أذنين تسمع بهما، ولكنَّه يصرِفك عن سماع الحقِّ، كما قال الله ﷻ في حقِّ الكفَّار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، والكافر لا يسمع الحقَّ ولا يستجيبُ له، ولكنَّ المؤمِن يسمع الحقَّ وينصتُ له بجِدٍّ، ويتفاعل معه بالاستجابة له، ولذا قال المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]، فما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

(1) رواه التِّرمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم، واللَّفظ للتِّرمذي.

إنَّ الاستماعَ للأذُنين، والإنصاتَ لبصيرة القلبِ، فالإنصات للقرآن يعني أنْ تتوجَّه بكُلِّيتك لاستقبال صفائية القرآن الكريم، فتشعر بأنَّه كلام الله، فالله هو المُتكلِّم وليس أحد غيره، ولا يزال ربُّك يتكلَّم، والقرآن يُتَلَقَّىٰ، فإذا استقبلتَ كلام الحقِّ جلَّ جلاله بهذا الصَّفاء الرُّوحيِّ، امتلأ قلبك نورًا وخشية، وارتعدتْ فرائسك، واقشعرَّ جلدُك، وكنتَ ممَّن قال الله ﷻ في حقِّهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: 23].

إنَّ الدِّين لا يقتصر أمره علىٰ الصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجِّ فقط، بل هو أشمل من ذلك، وإنَّما هذه أركان وقواعد الدِّين، أي القواعد التي ينبني عليها الإسلام، وليستْ هي الإسلام كلُّه، فمَن اعتقد أنَّ مجرَّد الصَّلاة الصُّورية الشَّكلية صلاة الأشباح هي الدِّين فقد جانب الصَّواب، وأخطأ الحقَّ، والحقيقة أنَّ الدِّين يشمل كلَّ حركة من حركات المؤمِن، ولكلِّ حركة من هذه الحركات ثمرة، فأنت مثلاً عندما تستيقظ من نومك قد جعل لك النَّبيُّ ﷺ دعاء تدعو به الله، فتقول: «الحمدُ لله الذي أحْيانًا بعد ما أماتَنا وإليه النُّشُور»، أي أنَّك بعد أنْ تبدأ ببسم الله الذي أقامك من النَّوم وأيقظك منه تحمد الله، ولكن هل تحمده لمجرَّد النَّوم فقط؟ لا، بل تحمده لأنَّه أحياك بعد ما أماتك، وهيأك للنُّشور.

وتأمَّل جيِّدًا بأنَّك تقول: الحمد لله الذي أحيانًا بصيغة الجمع، ولا تقل: الحمد لله الذي أحياني بصيغة المفرد، لأنَّك لو كنتَ وحدك في الوجود حيًّا فهل يستقيمُ أمرُك؟ لا، ذلك غير ممكن، لأنَّ إحياءك أنت نِعمة، وإحياء كلِّ من حولك نِعمة وخِدمة لك، وإكراما ومحبة لك، وذلك ليستقيم أمر حياتك، ومن أجل كل ذلك تقول عند الاستيقاظ من النَّوم بصيغة الجمع: «**الحمدُ لله الذي أحْيانًا بعد ما أماتَنا وإليه النّشُور**»، ثم تقول: «**وإليه النُّشور**»، فما معنىٰ النُّشور؟ أي أنَّك عندما تنتشر من بيتك إلىٰ الشَّارع وإلىٰ السُّوق وإلىٰ العمل يجب أنْ يكون ذلك الانتشار لله.

وينبغي أنْ يكونَ شعورُك كذلك، أي تستشعر وأنت خارج من البيت مَن الذي أقدرك علىٰ السَّير والمشيِّ؟ ومَن الذي وجَّهك وأمدَّك بإرادة الخروج ؟ إنَّه الله ﷻ الذي أمدَّك بكلِّ ذلك، فإمداداته متواصلة، ونِعَمه متوالية مُتواترة، فإذا شعرتَ بهذا غبتَ عن نفْسك بالكُلِّية، وخرجتَ عنها مرَّة واحدة، وعايشتَ ربَّك في الحركة والسُّكون.

إذن ماذا تتصوَّر لو أنَّنا فهمنا هذا الحديث وحفظناه وعملنا به في حياتنا؟ لو فعلنا ذلك ما غفلنا عن ربِّنا طرْفة عَيْنٍ، ولكن مع الأسف الشَّديد القلوب المُغْفَلة والبصائر المطموسة لا ترىٰ من الحديث إلاَّ الألفاظ تحفظها ولا تعِيها، فهل هذا يُسَمَّىٰ فهمًا للحديث وحِفظًا له أم تضيِّعًا له؟ هذا يُعَدُّ تضيِّعًا للحديث، ولذلك قال الله ﷻ : «﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، وطبيعي أنَّ الذِّكْرىٰ تنفع المؤمنين، لأنَّ الذي لا يؤمِن بهذه الذِّكْرىٰ، ولا يُصَدِّق بها، ولا يستقبِلها بصفاء قلبٍ من رسول الله ﷺ لن ينتفع بها.

والذِّكْرىٰ تنفع مَن أحيا اللهُ ﷻ قلبه بالإيمان، ولذا قال الله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]، وما هو النُّور الذي يمشي به في النَّاس؟ هو نور الإيمان الذي يجعل العبد المؤمن طائعًا لربِّه طيلة حياته، ويمنحه طاقة روحيَّة قويَّة تُسَهِّلُ الصِّعاب، وتُيَسِّرُ العسيرَ مصداقًا لقول الحقِّ جلَّ جلاله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5-7]، فالمؤمِن التَّقيُّ الصَّادق والمُصَدِّق أمْرُهُ كلُّه يُسْرٌ، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

وأمَّا الذي يبخل بما أعطاه الله من مال أو جُهْد، ولا يتَّقي الله ربَّه، ولا يكون صادقًا ومُصَدقًا فإنَّ الحقَّ ﷻ لا يُوفِّقه إلىٰ الطَّاعات، وتتعسَّر عليه القُربات، ويتردَّىٰ في أودية المهالك -والعِياذ بالله- لأنَّه آثر الدُّنيا علىٰ الآخرة، وتلك علامة الضَّلال، فإنْ كنتَ من الذين يُؤْثِرون دنياهم علىٰ آخرتهم فتأكدْ بأنَّك

من الخاسرين، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9]، فكلُّ ما يُشغِلك عن ذِكْرِ الله، وعن الفهم عن الله، وعن العمل بما يُرضي الله فهو خُسران مُبين.

إذن إذا عُدنا إلىٰ الحديث عن شهر الصِّيام فنقول: إنَّ شهر الصِّيام شهر يخرج منه المؤمن الذي كان مُراعيًا لحرمة الصِّيام وقد صُقِل قلبُه، وعشِق ربَّه، وأحبَّ مولاه، فلا تراه إلاَّ كالنَّحلة ينتقل من زهرة إلىٰ زهرة ليأكل لُبًّا ورحيقًا مختومًا، فيلِد عسلا مُصَفًّىٰ شهيًّا فيه شِفاء للنَّاس، وأمَّا الذي لم يكن مُراعيًا لفضل هذه العبادة، ولم يعتن بصيامه، فلا تراه بعد رمضان إلا كالذُّبابة ينتقل بين القاذورات، ولا يلدُ إلا نتِنا يُستقذَر، وهذا هو الفرق بين المؤمن الصَّادق التَّقيِّ مع مولاه وغيره من العُصاة المُتمَرِّدِين عن ربِّهم.

وليس العيبُ في ارتكاب الأخطاء واقتراف الذُّنوب، ولكن العيب في الإصرار علىٰ المعاصي والتَّمادي فيها، وعدم الاستغفار والتَّوبة الصَّادقة إلىٰ الله، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**والَّذي نفسي بيدِه لو لم تُذْنِبوا لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقوم يُذنِبون فيستغفرونَ اللهَ فيغفرُ لهم**»[1]، وكأنَّ الحقَّ ﷻ يقول لعبده: كنْ في معيَّتي ولا تنسني فإنِّي أرحم الرَّاحمين، وإذا عصيتني فعُدْ إليَّ واسألني المغفرة فأغفر لك، وتعلَّقْ برجائي، ولا تغفل عنِّي، واسألني التَّوبة فأتوبُ عليك، وتذلَّل إليَّ لأرحمك فأنا أرحم الرَّاحمين، وداوِم علىٰ ذِكْرِي، فالذِّكْر مفتاحُ كلِّ فَرَجٍ، وألزِمْ باب الاستغفار فهو المخرَج من كلِّ ضيق.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ لزِم الاستغفارَ جعلَ اللهُ لهُ مِن كلِّ هَمٍّ فَرَجًا ومِن كلِّ ضِيقٍ مخْرجًا، ورزقَهُ من حيثُ لا يحتَسِبُ**»[2]، فالاستغفار وقراءة القرآن والمُداومة علىٰ ذِكْر الله من أسباب الرِّزْق، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**مَن شغلَهُ**

(1) رواه مُسلم وأحمد وغيرهما.

(2) رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما، واللَّفظ لابن ماجه.

القرآنُ وذِكْرِي عن مسألَتِي أعطيتُه أفضلَ ما أُعْطِي السَّائِلينَ، وفضْلُ كلامِ الله علىٰ سائرِ الكلامِ كفضْل اللهِ علىٰ خَلْقِه»[1].

اللَّهُمَّ اختمْ بالصَّالحات أعمالَنا، وتقبَّل منَّا صيام هذا الشَّهر المبارك وقيامه، واجعلنا من العُتقاء فيه، وأملأ قلوبنا بمحبَّتك يا أرحم الرَّاحمين، يا ربَّ العالَمين.

(1) رواه التّرمذي والبيهقي والدَّارمي وغيرهم، واللَّفظ للترمذي.

obeikandl.com

الدَّرس الرَّابع[1]

ليلة القَدْر المُبارَكة

بعد تلاوة عطرة مباركة من أحد المقرئين لسورة القدْر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [سورة القدر]، قال الشَّيخ الجليل مربِّي المريدين وقدوة السَّالكين عليّ تابعي بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، والصَّلاة والسَّلام علىٰ البشير النَّذير الهادي إلىٰ الصِّراط المستقيم، شرَّفه ربُّه بكتابه الكريم، وأنزله عليه في ليلة اختصَّها بمزيد من الفضل والشَّرف والتَّكريم، اللَّهمَّ اجعلنا من المُتَّبعين لسُنَّتِهِ المهتدين بهديه إلىٰ يوم الدِّين، **أمَّا بَعْدُ**:

أيّها الإخوة الكِرام يقول الله عز وجل: « ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [سورة القدر].

سبقت كلماتُ الله في خَلْقِهِ أنْ فَاضَلَ بينهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات سواء في ذلك المكان والزَّمان والإنسان، وكان بمقتضىٰ ذلك أن فضَّلَ الله بعض بني الإنسان علىٰ بعض حيث قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: 253]، وفضَّل بعض الأمكنة علىٰ بعض فقال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النور: 36]، فكان المسجد الحرام والمسجد النَّبويُّ والمسجد

(1) درس خاص بمناسبة ليلة القدر ألقاه الشَّيخ علي تابعي بعنَّابة عام 1985م.

الأقصىٰ أشرف المساجد علىٰ الإطلاق، وكذا فضَّل الله ﷻ الأزمنة علىٰ بعضها، ومنها هذا الشَّهر العظيم، قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]، خصوصًا منه تلك اللَّيلة الفريدة الخالدة الذِّكْر ألا وهي ليلة القَدْر.

والحديث عن هذه اللَّيلة يأخذنا إلىٰ حيث اللَّيل السَّاكن الخاشع حين كان ﷺ يتحنَّث في غار حراء، وهو وحيدٌ يستلهم ربَّه الرُّشد ويرجوه الهُدىٰ، نزل الوحيُّ عليه وهو في خلوته تلك، أُنزِل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق]، وحين خرج ﷺ، علىٰ قومه بهذا التَّنزيل الكريم يُشْعِرُهم بفضل الله عليهم وجميل إحسانه ومِنَّته عليهم أعرضوا عنه ورفضوا ما جاء به، ورموه بالسِّحْر تارة وبالكهانة أخرىٰ وبالحجارة ثالثة.

ويؤكِّد الحقُّ ﷻ صِدْقَ رسالته فيقول: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 1، 2]، ويقول أيضًا: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 1-4]، ويتنزَّلُ القرآن الكريم ليؤكِّد هذه الحقيقة، روىٰ الحاكم والبيهقي في سندهما عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أُنزِل القرآنُ في ليلةِ الْقَدْر من السَّماء العُليا إلىٰ السَّماء الدُّنيا جُملةً واحدةً، ثمَّ فرِّق في السِّنين، قال: وتلا هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، قال: نزل مُفَرَّقًا»[1].

وفي الأثر عن ابن عبَّاس أيضًا: «فصِلَ القرآنُ عن الذِّكْرِ فوُضِعَ في بيتِ العِزَّةِ من السَّماء الدُّنيا، فجعلَ جبرائيلُ ينزِلُ به علىٰ النَّبيِّ ﷺ مُنَجَّمًا ومُفَرَّقًا علىٰ حسب الظروف والأحوال»، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 192-195]، وقال ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]،

(1) رواه الحاكم والبيهقي.

ولقد ابتدأ نزولُه في هذه اللَّيلة المباركة ليلة الشَّرف والتَّعظيم، ثُمَّ تتابع الوحي علىٰ رسول الله ﷺ، ولقد كان رسولُ الله من فرط ما يشعر بحلاوة القرآن ويخاف أن ينفلِتَ منه يحرِّكُ لسانه مستعملاً حفظه، فقال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: 16-19]، ثُمَّ تعهَّد ﷻ بحفظ هذا القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وتنزل سورة الدُّخان فتذكر اللَّيلة التي نزل فيها القرآن وأنَّها مباركة، حيث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: 3]، وإلىٰ جانب هذه السُّورة ينزِل قولُ الحقِّ تبارك وتعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185].

وما بين هذا وذاك تجيء سورة القَدْرِ، وتذكرُ هذه اللَّيلة وتخلعُ عليها صفة القَدْرِ والشَّرف التي هي صفة القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، ليلة القَدْر التي شرَّفها سبحانه بعظمة المُنَزَّلِ، ثُمَّ يعقِّبُ تعالىٰ بما يشعرُ من عظمة هذه اللَّيلة، وما أعدَّه من جزاء لمن أقامها واحتفىٰ بها، وهو احتفاء الملائكة بهذا الكرم الرَّبَّانيِّ حيث يقول: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة القدر]، لقد أولىٰ الله تعالىٰ قوَّامَ هذه اللَّيلة بشرفِ القُرب، وأولىٰ علىٰ نفْسِه أنَّ مَن قام هذه اللَّيلة أنّه يُقَرِّبه منه ويعفو عمَّا صدر منه، قال ﷺ: «**مَن قام ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[1].

ومن فضل هذه اللَّيلة وَرَدَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قصَّ علىٰ أصحابه قِصَّة رجل من الأمم السَّابقة حمل السِّلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجَّب الصَّحابة من شأن هذا الرَّجل وودُّوا لو كانوا مثلَه، فأعلمهم الله تعالىٰ أنَّ بين أيديهم ليلة واحدة يعدِل العملُ الصَّالح فيها ألف شهر من عمل ذلك الرَّجل أو يزيد، يعني خير من ثلاثة وثمانين سنة وأربعة أشهر.

وليس معنىٰ إحياء ليلة القَدْرِ أنْ نصلِّيَ ما تعودنا عليه من صلاة التَّراويح،

(1) رواه البخاري وأحمد والبيهقي وغيرهم.

ونسمع ما ألفناه من الدُّروس، إنَّما إحياؤها بتلاوة زائدة ومُتْقَنَة للقرآن الكريم، وبذِكْر الله ﷻ بنشاط وخشوع، وبالإكثار من السُّجود، والنَّدم علىٰ ما اقترفتاه من الذُّنوب، والشُّكر لله علىٰ ما أنعم به علينا من النِّعم التي لا تُحصىٰ ولا تُعَد، والتَّأمُّل والتَّفكُّر في ملكوت السَّموات والأرض وما خلق الله من شيء، والدُّعاء والإكثار منه بحرارة ويقين، لأنَّ الله يسمع، فإذا فعلنا كلَّ ذلك أحْسَسْنا بحلاوة الإيمان في قلوبنا، وشعرنا بصفاء نفوسِنا وطهارتها، فنكون بذلك قد أحييناها حقَّ الإحياء.

ولأهمية ليلة القَدْر المُباركة تنزِلُ الملائكةُ فيها إلىٰ الأرض من كلِّ سماء، ويستغفرون ويُسَلِّمون ويدعون بالخير لكلِّ المؤمنين بقولهم: «اللَّهُمَّ اغفرْ لهم، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُم»، قيل: يقول الله تعالىٰ في هذه اللَّيلة: «**يا جبرائيل الطَّاهر، ويا ميكائيل الذَّاكر ويا إسرافيل الرّاكع، اختاروا من الملائكة أرحمهم، واقصِدوا زيارة العُصاة من أمَّة محمَّد ﷺ، فينزِلُ مع كلِّ ملَكٍ منهم سبعون ألف مَلَك، ولهم أربعة ألوية: لِواء الحمد، ولِواء المغفرة، ولِواء الكرم، ولِواء الرّحمة، فيسمع أهل كلِّ سماء حتَّىٰ الحور العين في الجنَّة فيقلن: يا رضوان ما هذه اللَّيلة؟ فيقول رضوان: هذه ليلةُ العَرْضِ، يُعْرَضُ أزواجكنَّ، فيُرفَعُ الحِجابُ حتَّىٰ ينظرن أزواجهنَّ، (أي كلّ حوراء من الحُور العِين تنظر زوجها من المؤمنين)، فتنزِل الملائكة وينصِبون لِواء المغفرة علىٰ قبر النَّبيِّ ﷺ، ويُنْصَبُ لواءُ الرَّحمة علىٰ الكعبة المُشرَّفة، ولِواءُ الكرامة علىٰ قُبَّة الصَّخرة في بيت المَقْدِس، ولِواءُ الْحَمْد بين السَّماء والأرض، فلا يبقىٰ بيتٌ فيه مؤمن ولا مؤمنة إلاَّ دخله ملَكٌ من الملائكة، فمن كان جالسا سلَّم عليه ملَكٌ من الملائكة، ومن كان ذاكرا سلَّم عليه جبريل، ومن كان مُصلِّيا صلَّىٰ عليه ربُّ العِزَّة**».

قال الإمام الرَّازي فإذا طلع الفجر نادىٰ جبرائيل: يا معشر الملائكة الرَّحيل الرَّحيل، وتسأل الملائكة فتقول: ما صنع الله بالمُسلمين في هذه اللَّيلة؟ والمُسْلِمون لا يسألون ما فعل الله بهم، فيا أسفاه! فيقال لهم: إنَّ الله تعالىٰ نظر إليهم بالرَّحمة وعفا عنهم وغفر لهم إلاَّ أربعة:

- **مُدْمِنُ الخَمْرِ**: الملازمُ للخمر، فتجد بعض النَّاس يصومُ عن الخمر في رمضان، فإذا فرغ من هذا الشَّهر فأول ما يخطر بباله شُرْبُ الخَمْرِ.

- **عاقٌّ لوَالِدَيْه**: وهو الذي لا يرىٰ منه والِداهُ إلاَّ شرًّا، لا من حيث المُكالمة والمُعاملة، ولا من حيث المُسَالَمة والمعاونة، فهذا أيضًا ممَّن لا ينظر الله إليهم، ولا يغفر لهم.

- **قَاطِعُ الرَّحِم**: وهو صاحبُ الخُصومات والمشاكِلِ والفِتَنِ الذي يُثيرُ الفِتَنَ والشَّغَبَ في المجتمع، ولا يطيبُ له بالٌ إلاَّ أن تشتعِلَ نارُ الفتنِ بين المُسلمين.

- **المُصارِم**: الذي لا يكلِّم أخاه فوق ثلاث، فهذا أيضًا لا يدخلُ في المغفرة، ولا في نَظَرِ اللهِ إليه بالرَّحمة والعفو.

قال الرَّسول ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالىٰ يُنزِلُ في كلِّ ليلة قَدْرٍ رحمةً واحدةً تُصيبُ جميعَ المؤمنين من مشرِق الأرض إلىٰ مغرِبها، ويبقىٰ منها بقية فيقول الله تعالىٰ: أصرِفوها إلىٰ المواليد**»، قيل أنَّ هذه البقيةَ من الرَّحمة تُصْرَفُ لمَن وُلِدُوا في هذه اللَّيلة من مواليد الكفَّار، فصارت هذه الرَّحمة خاصَّة بهم، وقد يقولُ القائلُ: لماذا تكون الرَّحمةُ المذكورة لمواليد الكفَّار وليستْ لمواليد المُسلمِين؟ قيل: أنَّ تلك الرَّحمة تجرُّ كلَّ مولود من مواليد الكفَّار إلىٰ دار الإسلام، ويكون من المؤمنين حتمًا ويموت مؤمنًا.

رُويَ أنَّ سيِّدنا موسىٰ عليه السلام قال في مناجاته لربِّه: «**إلهي أريدُ قربَك، قال تعالىٰ: قُرْبِي لمَن استيقظَ ليلةَ القَدْرِ، ثُمَّ قال: إلهي أريدُ رحمتَك، قال: رحمتي لمَن يرحمُ المسكينَ ليلةَ القَدْرِ، فيقول موسىٰ: إلهي أريدُ الجوازَ علىٰ الصِّراط كالبرقِ الخاطفِ، فيقول تعالىٰ: ذلك لمن تصدَّقَ ليلةَ القَدْرِ فيقولُ موسىٰ: إلهي أريدُ أنْ أقعُدَ تحت ظلِّ أشجار الجنَّة وآكلُ من ثمارها، فيقولُ الله جلَّ وعلا: ذلك لمَن سبَّحَ تسبيحةً ليلة القَدْرِ، ثُمَّ يُعَاوِدُ موسىٰ فيقول: إلهي أريدُ النَّجاة من النَّار، فيقول الله له: ذلك لمَن استغفرَ اللهَ ليلة القَدْرِ إلىٰ الصُّبْحِ، وقال موسىٰ: إلهي أريدُ رضاك، فيقولُ تعالىٰ: رضائي لمَن صلَّىٰ ركعتين ليلةَ القَدْرِ.**

ورُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ أبوابَ السَّماءِ مفتوحةٌ ليلةَ القَدْرِ، ما مِن عبدٍ يُصَلِّي فيها إلاَّ جعل الله له بكلِّ تكبيرة غرسا في الجنَّة من دُرٍّ وياقوت، وبكلِّ آية قرأها تاجا في الجنَّة، وبكلّ جلسة جلسها لله درجة من درجات الجنَّة، وبكلِّ تسليمة من الصَّلاة حلَّة من حُلَلِ الجنّةِ، ومَن صلَّىٰ في ليلة القَدْرِ أربعَ ركعاتٍ، يقرأ الفاتحة وألهاكم التَّكاثر مرَّة واحدة، وقل هو الله أحد ثلاث مرَّات، هوَّن الله تعالىٰ عليه سكرات الموت، ورفع عنه عذاب القبر، وأعطاه أربع أعمدة من نور، علىٰ كلّ عمود ألف قصر في الجنَّة**».

ورُوِيَ عنه ﷺ أنَّه قال: «**مَن صلَّىٰ ليلةَ القَدْر ركعتين، يقرأ في كلِّ ركعة بفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص سبع مرَّات، فإذا سلَّم من الرَّكعتين يستغفر الله تعالىٰ ويقول: أستغفرُ الله وأتوبُ إليه سبعين مرَّة، فلا يقومُ من مقامه حتَّىٰ يغفرَ الله له ولأبويه، ويبعثُ الله تعالىٰ إليه ملائكة إلىٰ الجِنان يغرِسون له الأشجار، ويبنون له القصور، ويجرون له الأنهار، ولا يخرجُ من الدُّنيا حتىٰ يرىٰ ذلك كلَّه**».

وقال أيضًا: «**من قال في تلك اللَّيلة ثلاث مرَّات: لا إله إلاَّ الله محمَّد رسولُ الله غفر الله له بواحدة، وأنجاه من النَّار بواحِدة، وأدخله إلىٰ الجنَّة بواحدة**»، ومِن ثَمَّ فقد كان ﷺ حَفِيًّا بمعرِفتِها وتحديدِها حتَّىٰ لا يفوتَ أمّتُه شَرَفَ إحيائها، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالتْ: قال ﷺ: «**تحرُّوا ليلة القَدْرِ في الوِتْرِ من العشر الأواخر من رمضان**»[1].

ولقد سألت عائشة رضي الله عنها النَّبيَّ ﷺ عن ما تدعو به إذا أدركتْ ليلة القَدْرِ فقال لها قولي: «**اللَّهمَّ إنَّك عفوٌّ تُحِبُّ العفو فاعفُ عنِّي**»[2]، وأخفىٰ الله تعالىٰ هذه اللَّيلة في العشر الأواخر من رمضان تحفيزًا للهمم وللطَّاعات والاستزادة من الخير لكي لا تتواكلَ هذه الأمَّة وتنصرفَ لانتظارِ وقتها، لأنَّ الله تعالىٰ لو حدَّدها لتعطَّل

(1) رواه بهذا اللَّفظ البخاري في صحيحه والبيهقي في شُعب الإيمان.

(2) رواه أحمد والنّسائي والحاكم وغيرهم.

النَّاس عن العبادة انتظارًا لتلك اللَّيلة ذاتها، فلو كانت محدَّدة لفات الأمَّة الثَّواب الجزيل والخير الكثير، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

أيُّها الإخوة الكِرام إذا كانت هذه اللَّيلة شَرُفَتْ وعظمَتْ بنزول القرآن فيها، فكيف بمن نزل القرآن من أجلهم، واحتوته صدورهم، وتخلَّقوا به في أقوالهم وسلوكهم؟ إنَّهم به والله لأفضل الخَلْق، ولكنَّنا جعلنا قرآننا لا همَّ لنا فيه إلاَّ أنْ نكتبه في الأحراز والرُّقىٰ، ونقرأه علىٰ الأموات، ونتلوه بأحسن القِراءات، وقلوبنا من نوره وأسراره كالأرض الموات، ونتشدَّق به في الخُطَبِ والدُّروس والمُحاضرات، ونحن بعيدون عنه في سلوكنا ومجتمعِنا ومعاملاتنا بُعدَ الأرض عن السَّموات، أَلِهذا أيُّها الإخوة نزل القرآن الكريم؟! أبدا والله.

إذن لا يصلحُ شأننا في ديننا ودنيانا وآخرتنا إلاَّ بالقرآن، ولقد ذمَّ الله تعالىٰ اليهودَ فقال في شأنهم مُوَبِّخًا إيَّاهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: 5]، رغم أنَّ اليهودَ حفظوا لفظ التَّوراة ويقرؤونها بأحسنِ القراءات، ولكنَّهم لم يفهموا معناها، ولم يعملوا بمقتضاها، ولذا وصفهم الحقُّ ﷻ بالبهائم التي تحملُ الأسفار.

إنَّنا أمَّةُ القرآن، ومَجْدُ هذه الأمَّة إنَّما هو القرآن، ذلك الكِتاب الذي ربط بين جميع المسلمين، وكان دستورهم في شؤون دنياهم ودينهم، والرُّوح الذي أحيا موات أفئِدتهم، فلا رجاء لحياة القلوب إلاَّ بالرُّجوع إلىٰ القرآن الكريم فهمًا وتطبيقًا، لأنَّه هو الذي أزال الغشاوة عن تلك القلوب، وهو النُّور الذي أضاء لهم الطَّريقَ، وسلكوا به سبيلَ الهُدىٰ والرَّشاد، قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174].

أيّها الإخوة لقد غُلِبَتْ هذه الأمَّة يوم ابتعدتْ عن القرآن، وانتصرتْ يوم اعتزَّتْ بالقرآن واتَّخَذَتْهُ إمامها، ولاذتْ به وحكَّمته فيما شجر بينها، قال الله

تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

إنَّ باستطاعة كلِّ مسلم أنْ يُحَكِّمَ القرآن في كلِّ المُشاجرات التي تقع بينه وبين أهله، وبينه وبين من هم تحت سلطته، فيُحَكِّمُ القرآنَ في نفْسه وفي أولاده، هذا علىٰ الأقلِّ، لأنَّ كمالَ الإيمانِ كما صرَّحتْ به الآية لا يكون إلاَّ في تحكيم هذا القرآن في كلِّ شيء نراه حقًّا أو باطلاً، فإن كان حقًّا نتَّبعه، وإن كان باطلا نتركه، وفي عصر الخلفاء الرّاشدين وفي العصر الذَّهبي الأوَّل حين كانت للقرآن مكانة في القلوب وفي سلوك النَّاس وفي تصرُّفاتهم في الخارج، كانت هذه الأمَّة عزيزة الأركان، تخطب الدُّنيا وُدَّها وترجو رفدها وعونها، وتخشىٰ بأسها، وتأمل خيرها.

إنَّه أيُّها المسلمون القرآن المَخْرَج من كلِّ فتنة، والملجأ في كلِّ شِدَّةٍ، وقد قال سيّدُنا عليّ (كرَّم الله وجهه ورضي عنه): سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ستكونُ فِتنٌ، قلتُ: وما المخرَج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحُكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهُدىٰ في غيره أظلَّه الله، فهو حبلُ الله المتين، وهو الذِّكْرُ الحكيم، وهو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبِس به الألسِنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلقُ عن كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبه**»[1].

أيُّها الإخوة الكِرام: تحت راية القرآن فامضوا، وبِهَدْيِهِ فلتعملوا، وصِراطه المستقيم فاتَّبِعوا، وكونوا أهلا لنصر الله الذي ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم، واتَّقُوا الله الذي أنتم به مؤمنون، وأخيرًا أقول كما علَّم رسول الله ﷺ أمَّنا عائشة رضي الله عنها: «**اللَّهُمَّ إنَّك عفوٌّ كريمٌ، تُحِبُّ الْعَفْوَ فاعْفُ عنَّا**».

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ برِضاكَ من سَخَطِكَ، ونعوذُ بمعافاتك من عقوبتك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ علىٰ نفْسِك، اللَّهُمَّ أهدنا فيمن هديتَ، وتولَّنا فيمن

(1) رواه الدَّارمي.

تولَّيتَ، وعافِنا فيمن عافيتَ، وقِنا شرَّ ما قضيتَ، إنَّك تقضي ولا يُقْضَىٰ عليك، لا يذِلُّ من والَيْتَ، ولا يعزُّ من عاديتَ، تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ اللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من عِلْمٍ لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعيْن لا تدمع، ونفْسٍ لا تشبع، وعمل لا يُرفع ودعاء لا يُسمع، اللَّهمَّ إنَّا نسألك فِقها في الدِّين، وزِيادة في العِلْم، وكِفاية في الرِّزق، وعافية وصِحَّة في البدن، وتوبة قبل الموت، وراحة عند الموت، ومغفرة بعد الموت، ولذَّة النَّظر إلىٰ وجهك الكريم من غير ضرَّاء مُضِرَّة، ولا فِتنة مُضِلَّة، يا أرحم الرَّاحمين وخير المسؤولين.

اللَّهمَّ إنَّك سألتنا من أنفُسِنا فلا نملِكها إلاَّ بك، اللَّهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصِيتك، ومن طاعتك ما تُبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به عنَّا مصائب الدُّنيا، ومتِّعنا اللَّهمَّ بأسماعِنا وأبصارِنا وقوَّاتنا أبدا ما أحييتنا، واجعله اللَّهمَّ الوارِثَ منَّا، واجعل ثأرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل الدُّنيا أكثر همِّنا ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسَلِّطْ علينا بذُنوبِنا من لا يخافُك ولا يرحمُنا يا أرحم الرّاحمين، يا ربَّ العالمين، اللَّهمَّ إنَّا نسألك من النِّعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرَّحمة شمولها، ومن العافية وصولها، ومن العيش أرغده وأسعده، ومن الإحسان أتَّمه، ومن الإنعام أعمَّه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللُّطف أقربه.

اللَّهمَّ كن لنا ولا تكن علينا، اللَّهمَّ اختم لنا بالسَّعادة آجالنا، وحقِّق بالزِّيادة آمالنا، وأقرِن بالعافية غدُّونا وآصالنا، واجعل إلىٰ رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سِجال عفوِك علىٰ ذنوبنا، ومُنَّ علينا بصلاح عيوبنا، واجعل التّقوىٰ زادنا اللَّهمَّ ثبِّتنا علىٰ نهج الاستقامة، وأعِذنا في الدُّنيا من موجِبات النَّدامة، وخفِّف عنَّا ثِقْلَ الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفِنا شرَّ الأشرار، واعتِق رِقابنا ورِقاب أمّهاتنا وآبائنا وإخواننا من النَّار، وأعِز الإسلام والمُسلِمين، وانصر كلمة الحقِّ والدِّين، واغفِر لنا وارحمنا إنَّك أنت التَّواب الرَّحيم، ونجِّنا من الهمِّ والغمِّ والكرب العظيم.

اللَّهمَّ إنّا نسألك بدنا هيِّنا لطاعتك، وقلبًا مُتنعِّمًا بشكرك، ولِسانا رطبًا بذكرك، يا أرحم الرَّاحمين، يا أرحم الرَّاحمين، يا أرحم الرَّاحمين، يا ربَّ العالمين.

الدَّرس الخامس[1]

موَارِدُ الظَّمآن في نَفَحات شَهْر رَمَضان

بعد تلاوة عطرة مباركة لأحد المقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]، قال الشَّيخ الجليل مُرَبِّي المُريدين وقُدوة السَّالكين عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسني الشَّريف رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالَمين، والصّلاة والسّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

قال الإمام أبو حامد الغزالي (رحمه الله ونفعنا بعلومه آمين): «اعلم أنَّ الصَّومَ ثلاث درجات: صومُ العُموم، وصومُ الخُصوص، وصومُ خصوص الخصوص، أمَّا صوم العموم فهو كفُّ البطْن والفرْج عن قضاء الشَّهوة كما سبق تفصيله، وأمَّا صومُ الخصوصِ فهو كفُّ السَّمع والبصر واللِّسان واليد والرِّجل وسائر الجوارح عن الآثام، وأمَّا صوم خصوص الخصوص فصومُ القلب عن الهمم الدَّنية والأفكار الدُّنيوية، وكفُّه عمَّا سوىٰ الله ﷻ واليوم الآخر، وبالفِكر في الدُّنيا إلاَّ دنيا تُرادُ للدِّين، فإنَّ ذلك من زاد الآخرة وليس من الدُّنيا...»

يختلف النَّاس في فهمهم للصِّيام علىٰ درجات ثلاث: فمنهم من يقتصر صيامُه علىٰ الكفِّ عن شهوتي البطن والفرْج من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشَّمس،

(1) درس ألقاه العارف بالله الشَّيخ علي تابعي بزاوية عنّابة بتاريخ 13 جانفي 1994م.

وهذا صوم العموم الذين لا يكفُّ أحدهم جوارحه عن ارتكاب المعاصي واقتراف الآثام، ولا يُراعي لصيامه حُرمة ولا يعظِّم هذه الشَّعيرة، وكلُّ ذلك لفقدانه لتقوىٰ الله ﷻ القائل وقوله الحقّ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

وأمَّا صوم الخصوص وهو صوم ارتقىٰ فيه أصحابه إلىٰ مرتبة أعلىٰ من مرتبة صوم العموم، وهو صوم يكفُّ فيه الصَّائم جوارحه أيضًا عن الآثام والمعاصي، من غضٍّ للبصر عن المحرَّمات، وحفظ اللِّسان من الغيبة والنَّميمة والخصومة والمِراء وغيرها من الآفات، وكفٍّ بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرِّجل، وكفٍّ البطن عن الشُّبهات عند الإفطار، وينشأ كلُّ هذا من مراقبة المؤمن في صيامه لله جلَّ جلاله، وتعظيم شعائره، والحياء منه، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**استحيوا من الله حقَّ الحياء، قالوا: إنَّا نستحي من الله يا رسول الله والحمد لله، قال: ليس ذاك ولكن من استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما وعىٰ، وليحفظ البطن وما حوىٰ، وليذكر الموتَ والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء**»[1].

وأمَّا الدَّرجة الثَّالثة التي يرتقي إليها البعض في الصِّيام فهي صوم خصوص الخصوص الذين راقبوا الله ﷻ في صيامه، فراقبوا قلوبهم حتَّىٰ لا تتسربَ إليها الغفلةُ عن ربِّهم من أيِّ جهة من الجهات، ومن أيِّ منفذ من المنافذ، فحافظوا علىٰ جوارحهم من كلِّ مالا يُرضي سيِّدهم ومولاهم، وسدُّوا كلَّ المداخل التي تَرِدُ منها الغفلةُ عن الله سبحانه. وجميع الجوارح أبواب إلىٰ القلب، فالعين باب إلىٰ القلب، وسائر الجوارح كذلك، فهؤلاء وقفوا علىٰ مراقبة كلِّ هذه الأبواب، فسلمتْ قلوبهم وتطهَّرت ممَّا سوىٰ الله، لأنهم تركوا الطَّعام والشَّراب والجِماعَ طاعةً لله، و حفظوا جوارحهم من المُحرَّمات والشُّبهات امتثالا لأمره وخالصًا لوجهه الكريم، وبذلك تمَّتْ طهارتُهم، وصفتْ سرائرُهم، وتعلَّقتْ هِمَمُهُم بربِّهم.

(1) رواه التِّرمذي والبيهقي.

وهذه منازل الصِّدِّيقين والصَّالحين لمَن أراد أن يرتقي إليها، والباب مفتوح وليس مغلقًا، ولا يليق بأحد أن يقول: ليس في استطاعتي أن أنالَ هذه الدرجة وأكون من أهلها، فهذا كلام غير صحيح، بل هو نزغةٌ من نزغات الشَّيطان، فاحذره فإنَّه يريد أن يعود بك إلىٰ الوراء، وعليك كلَّما أراد أن يُثَبِّط عزيمتك، ويردَّك علىٰ أعقابك ويقول لك إنَّ الطَّريق إلىٰ منازل الصالحين شاقٌّ وكؤود أن تقول له: كلُّ مَن سار علىٰ الدَّرب وصل واستعن بالله ﷻ، فإنَّك ما دمتَ تستعينُ به، وتتَّكِل عليه وتتوجَّه إليه فسيعينك وسيرفعك في أسرع من طَرْفَةِ عَيْنٍ إن صدقتَ معه، فلا تخفْ، ولا تترك الشَّيطان يضحكُ عليك.

واعلمْ أنَّ الأنبياء بشر اصطفاهم الله ﷻ واختارهم للنُّبوَّة، والصِّدِّيقين والصَّالحين بشر اختصَّهم الحقُّ ﷻ وميَّزهم بالصَّلاح، والعلماء كذلك بشر مثلك فتح لهم ربُّهم أبوابَ العِلْم والشَّوق إليه والرَّغبة فيه، فحرصوا علىٰ أنفسهم وعزموا وتعلَّموا، فتحصَّلوا علىٰ فوائد العِلم وثمراته، فلا تستبعد أنت أن يأخذَ اللهُ بيدك ويوفِّقَك لتكونَ من العلماء العاملين الصَّادقين، أو من عباده الصَّالحين.

إذن يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ الصَّومَ درجاتٌ متفاوتةٌ، ولا يأبىٰ أحد أن يتعلَّم أن يرتقي إلىٰ هذه الدرجات ويتعلَّم دينه ويفهمه إلاَّ من لا يريد الله به خيرًا، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَن يُرِد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدِّين ويُلهِمُه رُشدَه**»[1]، وهذا يعني أنَّ الله ﷻ إذا أراد بك خيرًا فتح لك باب الفهم في دينه، ولكي تفهم الدِّين لا بدَّ من التَّعلُّم، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّم، وإنَّما الحِلمُ بالتَّحلُّم ...**»[2].

فإنْ فتح الله لك بابًا للعِلْم، ووفَّقك إليه، وسخَّر لك مَن يُعلِّمك، ولم تتعلَّم، فهذه علامة تدلُّ علىٰ أنَّ الله لا يريد بك خيرًا، ومعنىٰ يُلْهِمه رشده، أي يلهمه العمل بذلك العِلْم، فالرُّشد هو العمل بما تعلم، وقد قال رسول الله ﷺ:

(1) رواه بهذا اللَّفظ الطَّبراني في المعجم الكبير وأبو نُعيم في الحِلية.

(2) رواه الطَّبراني في الكبير وأبو نُعيم في الحِلية والبيهقي في شُعب الإيمان، واللَّفظ للطَّبراني.

«**مَن عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يعْلَم**»[1]، والذي لا يعمل بما يعلم يحرمه الله ويسلبه التَّوفيق فيما يعلم وفيما يعمل.

ومِن عدم التَّوفيق أنْ يسلبَ الله العبد الإخلاص في العمل -والعياذ بالله- وهذا مِن علامة غضب الله علىٰ العبد، أي أنَّ من علامة أنَّ الله لم يرد بالعبد خيرًا أن يرزقَه العمل ويسلبه الإخلاص في ذلك العمل، فيصير كالجسم الذي فقد روحه، فمن يشاهده ينظر إليه كجسم، ولكن لا حركة له، ومَن أعرض قلبُه عن حبِّ التَّعلُّم والعِلْم، وحبِّ العمل بذلك العلمِ والإخلاص فيه، فليعلم أنَّ الله ﷻ لم يُرد به خيرًا، وليبك علىٰ نفسه، وليدع ربَّه، وليتضرَّع إليه ليلا ونهارًا، وليلتجئ إلىٰ حضرته بالذُّلِّ والانكسار مضطرًا إليه رجاء أن يفتح له باب التَّوفيق، ولا ينبغي له أن يرضىٰ بهذه الحالة.

إذن إذا أحسستَ من نفْسِك النُّفور من حبِّ العِلم وطلب التَّعلُّم، فتلك علامة الخسران وعدم التَّوفيق من الله ﷻ، الذي لم يُرد بك خيرًا، فاهرع إلىٰ دعاء ربِّك، وتُبْ إليه من هذه الخواطر الرَّديئة التي أقرَّها الشَّيطان في قلبك، وعليك بمداومة ذِكْر الله، والجلوسِ بين يدي العلماء، وصحبة الصَّالحين الأخيار وخدمتهم بحُسْنِ النِّيَّة، والتَّأدُّب معهم، وحُسْنِ الظَّنِّ بهم، لعلَّ الله ﷻ يُكْرِمُك من أجلهم، فيأخذ بقلبك ويُطهِّره، ويُوَفِّقك للعِلم والعمل به بإخلاص.

ولنعُدْ من جديد إلىٰ الحديث عن الصِّيام وفضائله، فقد قال رسول الله ﷺ: «**نومُ الصَّائم عبادةٌ، وصمتُه تسبيحٌ، وعملُه مُضاعفٌ، وذنبُه مغفورٌ**»[2]، ولكن البعض فهموا هذا الحديث فهمًا خاطئًا، فيظلُّ أحدهم نائمًا طول النَّهار، فلا تجده في عمل من أعمال دنياه، ولا في أمر من أمور أخراه، بدعوىٰ أنَّ نوم الصَّائم

(1) رواه أبو نُعيم في الحِلية.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان وذكره السُّيوطي في تفسيره الدُّرُّ المنثور، ورواه أبو نعيم في الحِلية بلفظ «ونَفَسُه» بدل «وصمتُه».

عبادة، وهذا كلام ليس صحيحًا بالمرَّة، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يرىٰ عبدَه تعبًا في طَلَبِ الحلالِ**»[1].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنِّي لأكْرَهُ أنْ أرىٰ الرَّجلَ فارغًا لا في عمل الدُّنيا ولا الآخرة»، والحقيقة أنَّ الصَّائمَ هو الذي يقوم بعمله الدُّنيوي علىٰ أحسن وجه صِدْقًا وإخلاصًا وجِدًّا وأمانة وإتقانًا، ويعتني بأمور آخرته علىٰ أتمِّ الوجوه وأحسنها، ولا بدَّ للصَّائم من راحة قليلة بعد تعبٍ ومشقَّة، سواء في عمل الدُّنيا أو الآخرة، وذلك ليستعيدَ قواه، فهذا هو الذي يكون نومه عبادة.

وأمَّا المتكاسلُ عن العمل الذي يظلُّ نائمًا طول نهاره، ويبيت ساهرًا في اللَّهو واللَّعب مُضَيِّعًا لوقته، فمثل هذا لا يُعَدُّ نومه عبادة، بل هو خسران وندامة ووبال عليه -والعياذ بالله- لأنَّ النَّومَ الذي يكون عبادة هو الذي تدعو إليه الضَّرورة، كتعب من طاعة وعبادة، أو مِن ذِكْرٍ ومُذاكرة، أو مشقَّة من عمل أو بذل مجهود، وهذا هو النَّوم الحقيقي المطلوب، والمؤمن لا ينبغي أن ينامَ بلا سبب يدعوه لذلك بل يجب أن تكون له نيَّة شرعيَّة في نومه ليسترجع البدن قواه ونشاطه، ولتتجدَّد عبادته ويكون فيها أقوىٰ لأنّ الله يحبُّ المؤمِن القويَّ.

إنَّ المؤمنَ القويَّ هو المؤمن الذي يؤدِّي عمله الدُّنيوي علىٰ أحسن ما يرام كما ذكرنا سابقًا، ويقوم بعمله الرَّبَّانيِّ الذي بينه وبين ربِّه أيضًا علىٰ أحسن الوجوه، صادقًا مع الله، راغبًا في رضاه، وعاشقًا محبًّا له، ومُخْلِصًا في عمله لله ﷻ، وشاكرًا له علىٰ أنعمه، وراجيًا مغفرته ورحمته والفوز برضاه، ومثل هذا المؤمن الصَّائم يكون نومُه عبادة لربِّه وطاعة له، وأمَّا الذي تراه يعمل لدنياه وهو زاهد حتَّىٰ في عمله، ولا يعتني به ولا يُتقِنُه، ولا يخلُص فيه ولا يقوم بما أوجبه الحقُّ ﷻ عليه حقَّ القيام، فهو إنسان فاشل ومحروم من الدُّنيا والآخرة -والعياذ بالله- ولا يُعَدُّ نومُه عبادة، بل هو معصية.

---

(1) رواه الدَّيلمي في مسند الفردوس من حديث عليّ رفعه.

وقد يقول أحد: ما دام نوم الصَّائم عبادة، فأنا أظلُّ نائمًا طول النَّهار، ولا أباشرُ عملاً من أعمال الدُّنيا، ولا أقوم بأي أمر من أمور الآخرة، لأنِّي أخاف إن نهضتُ من النَّوم أن أرتكبَ المعاصي وأقترفَ الذُّنوب، فنقول لمثل هذا: إنَّ نومك بهذه النِّيَّة معصية، لأنَّه ليس لله، وإنَّما هو مطلب نفسيٌّ طلبتْهُ نفْسُك وأنت مُستسلم لرغباتها ومُتَّبع لشهواتها.

إذن النَّوم الذي هو عبادة هو أنْ تنامَ لربِّك لا لنفْسِك، وتنامَ لتُريحَ بدنَك وليتجدَّد نشاطك في العمل الذي يُقرِّبُك إلىٰ الله ﷻ، فتزداد رغبتك فيه، وهذا ما قاله الحقُّ ﷻ للنَّبيِّ الكريم ﷺ في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [سورة الشرح]، أي إذا فرغتَ من أيِّ أمر فانْصَبْ في عبادة الله ﷻ، وكن راغبًا فيه وعاشقًا محبًّا له، وإذا فرغتَ من نومك فاجتهد في الإقبال علىٰ طاعة ربِّك وامتثال أوامره، وإذا تناولتَ طعامك بنيَّة إعطاء البدن حقَّه، ولتستعين بذلك علىٰ عبادة الله ﷻ، فكن بعد ذلك شاكرًا لله علىٰ أنعمه وراغبًا فيه وفي ما عنده.

وهذا شأن المؤمن في الطَّعام والشَّراب وفي اليقظة والنَّوم، فإذا نام فلا ينم لنفْسِه، بل ينام لربِّه، ولهذا جاءت أدعية النَّوم لتُنَبِّهنا بأنَّ النَّومَ ليس للنَّفْس، وليس مطلبًا نفسيًّا، بل هو مطلب ربَّانيٌّ، وهذا يعني أنَّني أنامُ ليستريحَ بدني، وليتجدَّد نشاطي في عبادة الله ﷻ، ولأقومَ بعملي بجدٍّ وعزيمةٍ مُتْقِنا له ومُخلِصًا فيه رغبة في الله وفي ما عنده.

لقد خاطب الله ﷻ في السُّورة السَّابقة الرَّسول ﷺ وهو قدوتنا الأعظم، ولن ننال الخَيْرَ إلاَّ بالاقتداء به، لأنَّ الحقَّ ﷻ يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]، والذي يقتدي بالنَّبيِّ ﷺ يتَّصف بثلاث ميزات: له رجاء في الله الكريم، ويرجو أن يلقىٰ ربَّه في الآخرة وهو عنه راض، ويكون مستغرقًا في ذكر سيِّده ومولاه لا يفترُ عن

ذِكْرِه أبدًا، كما كان حال المصطفىٰ ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يذْكُرُ الله علىٰ كلِّ أحيانه»[1].

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ نوم الصَّائم عبادة إذا كان ينام بنيَّة شرعيَّة لربِّه لا لنَفْسه، وأمَّا الكسول الذي أصابه الوهن والفشل، وليس له مقصد شرعيٌّ في حركاته وسكناته، فإن نومه لا يكون عبادة، بل وبال عظيم عليه وخسران مبين، لأنه ينام شهوة لنَفْسِه لا طاعة لربِّه، ورغم أنَّ رمضان حقل عمل إلاَّ أنَّ هناك البعض من النَّاس لا يعملون في رمضان ويستعملونه حقلاً للكسل.

وللخروج من هذه الحالة ينبغي علينا مجاهدة أنْفُسِنا وكبح جِماحها عن الشَّهوات، والاستعانة عليها بتقليل الطَّعام والشَّراب، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ما ملأ آدميٌّ وِعاء شرّا من بطنه، حسب ابن آدم أُكُلات يُقِمن صُلْبَه، فإن كان لا محالة فثُلثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشرابه، وثُلُثٌ لنفَسه**»[2]، إنَّ كثرة الطَّعام تميت القلب، وتُفْسِد العقل بسبب صعود البُخار إلىٰ الدِّماغ وبالتَّالي يثقل البدن عن العبادة والطَّاعة، ويُصيبه الوهن، ويدُبُّ في أوصاله الفشل.

إنَّ نوم الصَّائم إذا نام بنيَّة شرعيَّة عبادة، وصمته تسْبِيح، لأنَّه لم ينم شهوة، وإنَّما نام طاعة لربِّه فتلك الأنفاس التي تخرج منه هي تسبيح لله ﷻ، لأنَّها أنفاس خرجت من مشتاق لربِّه، ولقد جاء في الأثر: «نَفَسٌ مِن أنفاس المُشتاقين خيرٌ من عبادة الثَّقلين»، ولقد أكرم الله سبحانه الصَّائم بأنواع شتَّىٰ من الإكرام، وجعل نومه عبادة، وصمته تسبيحًا، وعمله مُضاعفًا، وذنبه مغفورًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[3]، أي إيمانا بهذا الصِّيام، وإيمانا بالله ﷻ الذي فرضه عليه، وكان صادقًا في أدائه ومصدقًا به، لا يريد بذلك إلاَّ امتثال أوامر ربِّه، مُخْلصًا لوجهه الكريم، لا تشوب عمله سمعة ولا يعتريه رياء.

---

(1) رواه ابن ماجه في سُنَنِهِ.

(2) رواه البيهقي والتِّرمذي والنَّسائي والحاكم وابن حِبَّان وغيرهم، واللَّفظ للبيهقي.

(3) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الصِّيام عبادة فرضها الله ﷻ علىٰ عبده تشريفًا له، وخلوة يختلي فيها العبد بربِّه، وتجرُّدٌ من كلِّ المحسوسات، ومنها الطَّيِّبات من الرِّزق، فيمتنع بها نهارًا ويتناول منها قدر الحاجة ليلاً، والصِّيام فرصة يسمو فيها الصَّائم إلىٰ درجات من الرُّقيِّ في مراتب الإيمان ومدارج التَّقوىٰ وصفاء الرُّوح تَشَبُّها بأحوال الملائكة الأبرار المُطَهرين، وخلال الصِّيام يتعرَّض الصَّائم لنفحات ربِّه الودود، ولذا ينبغي للمؤمن التَّشمير عن ساعد الجدِّ للعبادة والطَّاعة لينال بركة هذا الشَّهر الكريم، ويكون من المُوَفَّقين.

وهناك من يعتقد أنَّ الأسرار والتَّوفيق والبركة تصُبُّ عليه كالمطر بدون أن يبذُل جهدًا وهذا غير صحيح، والله تبارك وتعالىٰ أعطىٰ الإنسان قوَّة وإرادة، ثُمَّ كلَّفه بما يُطيقُ، وأمره بما في وسعه، فعلىٰ المؤمن الإقبال علىٰ ربِّه في رمضان بالصِّيام نهارًا وبالقيام ليلاً، ولا ينبغي أن يتعلقَّ بالأعذار الواهية والعِلل الفاسدة، وقدوتنا في كلِّ هذا رسول الله ﷺ الذي كان له أهل وأولاد وكان يُسَيِّرُ دولة، ورغم ذلك كان يقوم اللَّيل حتَّىٰ تتورَّمَ قدماه وهو المعصوم، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّىٰ قام حتَّىٰ تتفطَّرَ رِجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله: أتصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال **يا عائشة: أفلا أكونُ عبدا شكورًا**»[1]، وصدق الإمام البوصيري إذ يقول:

ظلمتُ سُنَّةَ مَنْ أحْيَا الظَّلام إلىٰ أن اشْتَكتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ

إنَّ النِّعم التي نتنعم بها ليلاً ونهارًا تستحقُّ منَّا القيام في محراب العبودية لله طول حياتنا، ولا نكون بذلك قد وفَّينا شكر الله علىٰ إمداداته الكثيرة وعطاءاته الجليلة، ولماذا نتكاسل ولا نُقْبِلُ علىٰ الله بالنِّيَّة الصَّادقة والعزم الشَّديد؟! ولله تبارك وتعالىٰ نفحات ينبغي للمؤمن أن يتعرَّض لها ليفوز بتلك النَّفحات الربّانيَّة، وينال بركات الأوقات الفاضلة كشهر رمضان وقيام اللَّيل، وخصوصًا في الثُّلث الأخير منه.

(1) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وغيرهم، واللَّفظ لمسلم.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إذا مضىٰ شطر اللَّيل أو ثلثاه، ينزِل الله تبارك وتعالىٰ اسمه إلىٰ السَّماء الدُّنيا فيقول: هل من سائل يُعطىٰ؟ هل من داع يُستجاب له؟ هل من مُستغفِرٍ يُغفَر له ؟ حتَّىٰ ينفجر الصُّبح**»[1]، وهذا ربُّنا يناديا، أفلا نستجيب لندائه؟ وهل نحن أغنياء عن ربِّنا؟ إنَّنا لفقراء إلىٰ الله ومضطرُّون إليه، وعلينا أن نكون علىٰ الدَّوام في معيَّته داعين ومتضرِّعين وعاشقين مُحبِّين.

ولكي نصل إلىٰ هذا المقام الكريم علينا أن نجاهدَ أنفسنا لتزكيتها من رذائلها وتطهيرها من صفاتها المذمومة، وتحليتها بالصِّفات المحمودة والسُّمُوِّ بها عن شهواتها وحظوظها، والنَّفس إذا أحسَّتْ من صاحبها الحزم الشَّديد والإرادة القويَّة وعدم التَّردُّد في الإقبال علىٰ الله ﷻ، فإنَّها سَتسْكُنُ وتميلُ إلىٰ الموافقة، ولكن كن حذِرًا متيقِّظًا، فقد يكون سكونُها مَكْرًا وخديعة وفي موافقتها المخالفة، ومن عادتها أنَّها تبني تلك الموافقة علىٰ الغدر والمكر والخديعة، ولذلك ترىٰ من تحكَّمَتْ فيهم نفوسُهم يبنون أمورهم في الحياة علىٰ الخِداع في المعاملات والمعاشرات، ولا يصفو لهم ودٌّ، ولا تدوم منهم محبَّة، ولا يصدقون مع أحد، ذلك لأنَّ الشَّيطان يغويهم وهم مُكَبَّلون بشهوات أنفسهم.

لقد فرض الله ﷻ علىٰ الأمَّة صيام شهر رمضان، وسنَّ لهم النَّبيُّ ﷺ قيام لياليه، وكأنَّ الصِّيامَ خُلْوَةٌ مرَّة في السَّنة، فنهار المؤمن في رمضان صيام وليله قيَّام، وهذه هي الخُلوة التي يُنكرها الكثيرون علىٰ السَّادة الصُّوفيَّة ويقولون أنَّها بِدعةٌ وضلالةٌ، وهل الخُلوة التي اعتادها القوم إلاَّ صيام بالنَّهار وقيام وذِكْرٌ باللَّيل؟ وذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ شهر رمضان فقال: «**شهرٌ فرض الله عليكم صيامه وسننتُ أنا قِيامه، فمن صامَهُ وقَامَهُ إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدتْه أمُّه**»[2].

وفي شهر رمضان المبارك يكون المؤمن في عبادة ربِّه ليلا ونهارًا، فرمضان فرصة وفترة ليُرَوِّضَ الإنسانُ نَفْسَهُ، ولِيُجدِّدَ ما ضَعُفَ من قِواه، وليُصْلِحَ سلوكه

(1) رواه النَّسائي بهذا اللَّفظ، ورواه غيره بألفاظ متقاربة.

(2) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.

ومعاملاته مع الله ومع النَّاس ومع نَفْسِه، وليأخذَ بزِمام هذه النَّفس ليُقبِل علىٰ الله وعلىٰ حبِّه وحبِّ رسوله ﷺ، وليُديمَ الذِّكْرَ والطَّاعةَ، والصِّدقَ والإخلاصَ لربِّه، ولأجل كلِّ هذا كان الصِّيام الحقيقيُّ هو الصِّيام الذي تتفاعلُ معه كلُّ الجوارح، ويصومُ فيه القلبُ عن كلِّ ما يُبْعِدُ عن الله ﷻ، فتتقيَّدُ الجوارحُ بشريعة الله، ويَسْلَمُ القلبُ ممَّا سوىٰ الله، وهذه هي حقيقة الخُلوة التي يدعو إليها السَّادة الصُّوفية رضي الله عنهم والمُسَمَّاة في الشَّرع بالاعتكاف المعروف في كتب الفقه، والذي يجمع فيه المؤمن بين الصِّيام والقيام، وليس ذلك بِدْعًا من الأمر.

ويتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ لشهر رمضان فضلاً عظيمًا، وهو موسم للبِرِّ، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**إذا دخلَ رمضان فُتِّحتْ أبوابُ الجنَّة، وغُلِّقتْ أبوابُ جهنَّم، وسُلْسِلت الشَّياطين**»[1]، وصحيح فإنَّ الشَّياطين في رمضان قد صُفِّدتْ وسُلْسِلَتْ ولكنَّ النَّفسَ ما زالتْ، وهي أخبثُ من سبعين شيطانا كما قيل:

تـوقَّ نـفْـسَـكَ لا تـأمـن غَـوَائـلَـهـا فالنَّفْسُ أخبثُ من سبعين شيطانًا

إنَّ النَّفْسَ الأمَّارةَ بالسُّوء التي بين جنبيك تقوم مقام سبعين شيطانًا، ولذا يجب علىٰ المؤمن أن يتَّقيها ويحذر غوائلها، ولا ينبغي لعاقل أن يرضىٰ عن نفسه، وقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**أعْدَىٰ عَدُوّك نفْسُك التي بين جنبيك**»[2]، فليحذر المرء من طغيان نفسه عليه، لأنَّ النَّفْسَ خبيثةٌ، فهي تارة تسكنُ في بلد العبادة لتُحرِمَك من سِرِّ العبادة، وتارة تختفي في بلد المعاملة لتحرمَك من سرِّ المعاملة الحقيقيَّة، وقد تستقرُّ في مواطن العِلْم لتحرمَك من سرِّ العِلْم، وقد حذَّرنا النَّبيُّ ﷺ فقال: «**من طلب العِلْمَ لِيُمَاري به السُّفهاء، أو ليباهي به العُلماء، أو ليصرِفَ وجوه النَّاس إليه، فهو في النَّار**»[3].

إذن علىٰ الكيِّس العاقل أن يُجاهدَ نفْسَه، ولا يرضىٰ عنها أبدًا، ولا ينظر

(1) رواه مالك والبخاري ومُسلم وغيرهم بألفاظ متقاربة

(2) رواه البيهقي في الزُّهد الكبير.

(3) رواه ابن ماجه والدَّارمي وأبو نُعيم بألفاظ متقاربة.

إليها باستحسان شيء منها، وعليه أن يحذرَ من دسائسها وخسائسها، وهذا الأمر لا يمكن أن يتوصَّلَ الإنسان إليه وحده أبدا لأنّه لا بدَّ لك من مرآة ترىٰ فيها وجهك وعيوب ثيابك لتصقل ظاهرك، وقد كان رسول الله ﷺ يقول عند النَّظر في المرآة: «**اللَّهمَّ كما حسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[1]، واقتداء برسول الله ﷺ ينبغي عليك أنْ تدعو بهذا الدُّعاء المأثور كلَّما نظرتَ في المرآة حتَّىٰ لا تغترَّ بنفْسِك، ولا تمتلئ عُجبًا وكِبْرًا بشكلك أو بملابسك.

وأنت في الحقيقة عندما تدعو بهذا الدُّعاء إنّما تخاطب الله ﷻ، لأنَّ المرآةَ نفسَها نعمةٌ من ربِّك أقبلتَ عليها لتتمتَّع بها وترىٰ نقائصك وما فيك من العيوب الظَّاهرة وممَّا لا يليق أن يكون في ظاهرك وتخشىٰ النّاس أن يروه فيك، ولكنَّك لا تخشىٰ أنْ يرىٰ الله سرَّك وباطنك وعلانيتك المملوءة بالآفات والخبائث، ولا تستحي أن يطَّلِعَ ربُّك علىٰ معاملاتك وتصرُّفاتك وحركاتك وسكناتك التي هي لغيره، وهذا كلُّه من عدم تعظيم جناب الحقِّ جلَّ وعلا في قلبك.

ولهذا أوصانا المُصطفىٰ ﷺ بالدُّعاء السَّابق، وهو دعاء عظيم، وفيه سرٌّ جليلٌ لو فهِمه القائلون لجذبهم للحقِّ جلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤه، واستقام أمرهم علىٰ الصِّراط المستقيم، ولكنَّهم مع الأسف لا يُدرِكون ما ذا يقولون، وكأنَّهم نيَّام لا يبالون بما يتفوهون، لأنَّ العِبرة ليست بالكلام، وإنَّما العِبرةُ بالتَّحقُّق بذلك الكلام، فأنت تخاطبُ الحقَّ ﷻ وتقول: «**اللَّهمَّ كما حسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**».

وقد تكونُ المرآة وسيلة للعُجْب والكِبرياء، أو وسيلة للاعتداء والطُّغيان، وقد يمتلئ الإنسان عُجْبًا وكِبرًا عندما ينظر في المرآة، فيخرج للنَّاس وقد يغمط حقوقهم، ويتكبَّر عليهم ويحتقرهم، وهذا ما لا ينبغي أن يصدر من المؤمن، فلا تغتَرْ بعبادتك ولا بعملك ولا بعلمك، فقد تصلِّي في جماعة وبجوارك أحدهم تحتقره نفسك وتزدريه، وصلاته قد وصلتْ إلىٰ سقف العرش، وصلاتك لم تُرفعْ.

(1) رواه الطَّبراني في الدُّعاء.

وعليك أن ترىٰ نفسك ضعيفًا، لأنَّ العِبرة ليست بالشَّكل، فلا تغترْ بأمر من أمورك، وتعرَّض لنفحات الله ﷻ في مجالس الذِّكْر والذَّاكرين، وفي مجالس العلماء والصَّالحين، وكن من المُثابرين في طلب العلم، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**طلبُ العِلْم فريضة علىٰ كلِّ مُسْلِم**»[1]، وما هو العِلْم الذي يكون طلبُه فريضة؟

هو العِلْم الذي يُصقِلُ سلوكك ويُطهِّرُ قلبكَ، ويُقوِّمُ الاعوجاج في نفْسِك، ويُعطيك القيادة عليها فتقودها إلىٰ عقلك، ثُمَّ تقودُ عقلَك إلىٰ شرع الله، هذا هو العِلْمُ الذي يُعَدُّ طلبُه فرض عين علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة، والذي ينبغي الاهتمام به أشدّ الاهتمام، لأنَّه سبب صلتك بالله ﷻ وبرسوله ﷺ، فإذا كنتَ في مجلس تلاوة القرآن الكريم وأنت تشعرُ بأنَّ المُتكلِّم هو الله، أو كنتَ تسمع الحديثَ الشَّريفَ من رسول الله ﷺ وليس من القائل، وأنت تعايش بقلبك القرآن أو الحديث، أفلا تمتلئ نورًا وتزداد يقينا وصدقًا؟ بلىٰ إنَّ كلَّ ذلك حاصل لمن رزقه الله ﷻ الأدب مع كلامه ومع حديث رسوله ﷺ والتَّعظيم لهما.

ولذلك ينبغي لك أنْ تتعلَّم هذه الآداب وتعمل بها وتعايشها لتنال الأسرار الرَّبَّانيَّة لأنَّ سِرَّ الله ليس أمرًا هيِّنا، ولو كنت علىٰ غير أدب وتعظيم فستُحْرَمُ ذلك السِّرَّ، فمن أعرض بقلبه عن مجلس القرآن الكريم فقد أعرض عن ربِّه مباشرة، وكذلك من أعرض عن عالِم يُعلِّم الحديث فإنَّه أعرض عن رسول الله ﷺ.

وقد ورد في حديث: «أنَّ رسولَ الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والنَّاس معه، إذ أقبل ثلاثةُ نفر، فأقبل اثنان إلىٰ رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا علىٰ رسول الله ﷺ فأمَّا أحدُهما فرأىٰ فُرْجة في الحلْقة فجلس فيها، وأمَّا الآخرُ فجلس خلفهم، وأمّا الثّالثُ فأدبر ذاهبًا، فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ قال: **ألا أُخبِرُكم عن النَّفر الثّلاثة؟ أمَّا أحدُهم فأوىٰ إلىٰ الله فآواه الله، وأمَّا الآخرُ فاستحيا فاستحيا الله منه، وأمَّا الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**»[2].

(1) رواه ابن ماجه والطَّبراني والبيهقي وغيرهم.

(2) رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم.

وهكذا الشَّأن مع الصَّالحين، فهناك من يتحصَّلُ على سِرِّهم لمجالسته إيَّاهم بالتَّعظيم والأدب، والصِّدق والتَّصديق، وأمَّا من جالسهم مداراة ونفاقًا وتحايلاً، فلن ينالَ من سرِّهم شيئًا ولو بقي السِّنين العديدة معهم، لأنَّه لم يتأدَّبْ في مجالسهم، ولم يتطهَّر بها لعدم إقباله عليها بقلبه، ولأنَّه لم يعطها حقَّها من التَّعظيم والإجلال والإكرام، ولذلك حُرِمَ مِن سِرِّها، وكلُّ ذلك بسبب غروره بنفْسه وأنانيته واتِّصافه بالكِبْرِ، وقد قال الحقُّ جلَّ جلاله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14].

وقال الله ﷻ في حديث قدسي: «**العظمةُ إزاري، والكبرياءُ ردائي، فمن نازعني فيهما قصمتُه**»[1]، ومعنى قصمتُه قطعتُه، أي أنَّ الله يقطعه عمَّا يُوصِلُه إليه ويُقرِّبه مِن حضرته، ويكِلُه إلى نفْسه، وهو يظنُّ في نفْسه أنَّه من النَّاجين، وهذا هو القطع والبعد عن الله ﷻ، ولا نجاة للعبد من البُعد عن الله إلاَّ بمجالسة أهل الله الذَّاكرين كما جاء في الحديث: «... **هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهم** ...»[2].

ولكن إذا خرجتَ من مجالس الذِّكْرِ سعيدًا فعُدْتَ إلى أسباب الشَّقاء وأعمال الأشقياء، فهذا إفلاس وهلاك، ولن يُغْنِيَ عنك أحدٌ من أهلك يوم القيامة ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: 34-37]، وستنقطع الصِّلة يوم القيامة بينك وبين كلِّ النَّاس إلاَّ إذا كانت صلتُك بهم خالصة لله، فلا يجب على الإنسان أن يتعالى عن مجالس الذَّاكرين، لأنَّ المُحافظةَ عليها من باب الإقبال على الله، والبعدَ عنها من باب الطَّرد والإعراض عن الله والعياذ بالله.

وقد حذَّرنا الله ﷻ من هذا فقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 124-126]، ولا سبيل للنَّجاة إلاَّ

(1) رواه الحاكم في المستدرك.

(2) جزء من حديث رواه البخاري بطوله في فضل ذِكْر الله ﷻ.

بتقوىٰ الله وملازمة الصَّادقين وصحبتهم، ولذا قال الحقُّ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، فعلىٰ المؤمن أنْ يتَّصفَ بالتَّقوىٰ في أوَّل الأمر، أي التَّطهير أوَّلاً، لأنَّ منازل الصِّدِّيقين ومنازل السَّابقين لا ينزلها إلاَّ الأتقياء.

وأمَّا الذين لا تقوىٰ لهم فسيُحرِمهم الله ﷻ من هذه المنازل ويُبْعِدهم عنها، لأنَّها منازل صِدق، ولا يمكن أن يدخلها إلاَّ من كان طاهرًا ومتَّصِفًا بالتَّقوىٰ، والتَّقيُّ هو الذي امتلأ قلبه خَشية من الله جلَّ جلاله، وقد قال الإمام عليٌّ (كرَّم الله وجهه ورضي عنه): «التَّقوىٰ هي الخوفُ من الجَليل، والعَملُ بالتَّنزيل، والاستعدادُ ليوم الرَّحيل».

أي أنَّ التَّقيَّ هو الذي امتلأ قلبُه خوفًا وخشية من ربِّه، فدفعه ذلك إلىٰ العمل بالقرآن، واهتدىٰ بهديه في أقواله وأفعاله، وفي حركاته وسكناته، وفي تصرُّفاته ومعاملاته، وأعدَّ العُدَّة للقاء الله بمحاسبة نفْسه في الدُّنيا قبل أن يُحاسبه الله جلَّ جلاله يوم القيامة، وهو الذي يعلم السِرَّ وما أخفىٰ، وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

فعليك أن تحاسب نفسك الآن، وتزِن أقوالك وأفعالك ومعاملاتك فتتخلَّص من الغشِّ وتحافظ علىٰ السَّمين، وتُذهِب الشَّرَّ وتترك الخير، وتتعرَّض لنفحات ربِّك الودود علىٰ الدَّوام في مجالس الأتقياء الصَّادقين وأهل الله الذَّاكرين، لأنّ نفحات اليوم قد لا تأتي غدًا، وقد تكون نفحات الغد أعظم من نفحات اليوم، ولعلَّه يكون في ذلك المجلس عبد تقيٌّ صالح مقبول عند مولاه فيشفِّعه فيك، فلا تستبدِّل مجالس الذِّكْر بأيِّ مجالس أخرىٰ، ولا تجعل البديل اهتمامك بغير الله، فإنَّ المؤمن لا اهتمام له إلاَّ بربِّه، والمؤمن بدنه في الأرض وهمَّته متعلِّقة بالله، وهذا هو المؤمن حقًّا، لأنَّ كلَّ ما به فهو من الله العليِّ القدير القائل وقوله الحقّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53].

فكلُّ ما أنت فيه ليس من قوَّتك وصحَّتك، ولا من فهمِك وذكائك، بل هو من الله، لأنَّ ذكاءك الذي تعتزُّ به، وفهمك الذي تغترُّ به، وكلَّ ما تنسِبه لنفسك هو من مواهب ربِّك، فلا بدَّ أن تكون أنت في معيَّته، وتحرِص أن تكون من المقبولين والمحبوبين عنده، وهو لا يقبل ولا يحبُّ إلاَّ من تاب إليه وأناب، وتطهَّر من عيوب نفسه وزكَّاها، مِصداقًا لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

فلا تُقبِل علىٰ الله وأنت مليء بالخبائث، واسْعَ لتطهير سريرتك، ولكن كيف يتمُّ لك ذلك وأنت لا تسعىٰ إلىٰ الطَّاعات، ولا تُجهِد نفسك فيها، ولا تلتزِم بمواطنها، ولا تكن في مجالس الطَّائعين والأتقياء الذَّاكرين؟! واعلم أنَّك إذا استبدلتَ مجالس الصَّالحين بمجالس أخرىٰ، فلن تنال شيئًا ما دام أمرك هكذا، لأنَّك مُنْقَطِعٌ ومُدبرٌ عن الله، ومُقْبِلٌ علىٰ نفسك وشهواتها وحظوظها.

ولنعُدْ من جديد للحديث علىٰ شهر رمضان المُعَظَّم وفضائله، وما يشتمل عليه من خيْرٍ وبركةٍ، وقد قال رسول الله ﷺ: «... **للصَّائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطرَ فرِح، وإذا لقي ربَّه فرِح بصومه**»[1]، وبماذا يفرح الصَّائم؟ البعض يفرح بالمأكولات وألوانها، ويقول في نفْسِه: متىٰ يحين وقت الإفطار لأتناول ما أشتهي من أنواع الطَّعام، وأتلذَّذ بشرب شتَّىٰ أصناف المشروبات، ولكن ليس هذا الفرح الحقيقي الذي ينبغي أن تفرحه، بل أنت تفرح لأنَّ الله ﷻ منَّ عليك بالصِّيام وأكرمك به، وقوّاك علىٰ أداء هذه الفريضة بصِدق وتصديق وإيمان وطمأنينة امتثالا لأمر ربّك ورغبة فيما عنده محتسبًا ثوابك وأجرك عليه، وهذا هو الذي تفرح به، وليس بالأكل، لأنَّ الفرح بالأكل من طبيعة البهائم، وليس من طبيعة البشر، والذي يفرح بالأكل كالبهيمة لا يهمُّه في الحياة إلاَّ الأكل.

لقد فرض الله ﷻ عليك الصِّيام، ومنعك من الأكل من الطيِّبات، لترفع همَّتك عن المأكولات وعن الشَّهوات، فهل يليق بك أن تعود إليها عند الغروب

(1) رواه البخاري ومسلم والنَّسائي وأحمد وغيرهم بألفاظ متقاربة.

برغبة وشهوة نفسية؟ لا، وإنَّما تأتي للأكل وأنت فرِح بربِّك الذي وفَّقك لصيام ذلك اليوم، وهداك إلىٰ تلك الطَّاعة، وعصمك من فساد صومك وقوَّاك عليه، وهذا هو الفرح المنشود عند الإفطار، وهو الفرح المقصود في الحديث، وليس هو الفرح بالأكل، ولذلك أصحاب الفرح بالأكل في رمضان يسعون لتحقيق كلِّ رغبات النَّفس من الطَّعام، وكأنَّ رمضان عند هؤلاء هو شهر الأكلات والشَّهوات، وكأنَّه فرصة للأكل، والذي لم تحقُّقه النَّفس في غير رمضان تحقُّقه خلال هذا الشَّهر، وهذا ليس من تفكير العقلاء، بل هو فهم السُّذَّج من العامَّة.

إنَّ المطلوب من المؤمن الصَّائم إذا حان وقت الإفطار أن يقتدي بالنَّبيِّ ﷺ فقد ورد في كُتُبِ الحديث: «**كان رسولُ الله ﷺ يُفطِر علىٰ رُطُبات قبل أن يُصلِّي، فإن لم يكن رُطُبات فعلىٰ تمرات، فإن لم يكن حَسَا حسوات من ماء**»[1]. وكان ﷺ يدعو بهذا الدُّعاء عند الإفطار: «**اللَّهُمَّ لك صُمتُ، وعلىٰ رزْقِك أفطرتُ**»[2]، وما السِّرُّ في هذا الدَّعاء؟ هل هو مجرَّد كلمات نردِّدُها، ولا نفهم معناها، ولا نعرف حقيقتها، ولا نعيشها؟ لا، بل أراد الرَّسول ﷺ أن يرفع هِمَمَنَا عن الأكل وعن المأكولات، ولنشعر بأنَّ صيامنا خالص لله، وإفطارنا علىٰ رزقه امتثال لأمره وطاعة له، وليس رغبة من أنفسنا وشهوة منها، وكأنَّك تقول لله ﷻ : «اللَّهمَّ لك صمتُ، وعلىٰ رزقك أفطرتُ، لأنَّك أمرتني بالإفطار علىٰ رزق وهبته لي من عندك، فإنَّك أنت الوهَّاب.

فهل مثل هذا الشُّعور يذكِّرك بالأكل أم يُذكِّرك بالرزَّاق؟ والحقيقة أنَّ الذي يتفاعل مع الدُّعاء السَّابق ويعيشه، ويدعو به بصدق، فإنَّه يهيج قلبه بحبِّ ربِّه، وينطلق لسانه بذكر الله مُسَبِّحًا له وحامدًا، وتفيض عيناه بالدُّموع خشية ورغبة وخوفًا من الله جلَّ جلاله، وهذا ما يجب أن يكون عليه الصَّائم حتَّىٰ لا يأتي إلىٰ الأكل بشراهة، بل يتناول من الطَّعام ما يسدُّ به رمقه، ويُقيم صُلبه، وحتَّىٰ لا يثقلَ

(1) رواه أبو داود وأحمد والحاكم والدَّارقطني.

(2) رواه أبو داود والبيهقي والطَّبراني.

علىٰ العبادة وقيام اللَّيل، وأداء الطَّاعات من صلاة وذِكْر وطلب للعلْم ومجالسة لأهل الله المتَّقين من عباد الله الصَّالحين.

هذه الطَّاعات التي تطهِّر الأبدان والجَنان، وتصقل العقول والأذهان، وتُهَذِّب السُّلوك والمعاملات، وتقَوِّم الحركات، وتقي من الوقوع في المهالك والمُحرَّمات من الغشِّ والخديعة، والمكر والبُغض، والحسد والبخل، وتحمي الإنسان من كلِّ الآفات التي تتغلغل في قلبه، ولن يتطهَّر منها إلاَّ بإدامة ذِكْرِ الله وملازمة الطَّاعات لله، ومداومة الحضور في مواطن القُرب من الله، ومجالسة العلماء العاملين المُخلِصين، وصحبة أهل الله الذَّاكرين المُتَّقين.

ولن يتطهَّر أحد من الرَّذائل وتتزكَّىٰ نفسه إلاَّ بهذه الأمور، وهذا ما كان عليه حال الصَّحابة (رضي الله عنهم جميعًا) فرغم مُجالستهم للنَّبيِّ ﷺ وأدائهم لطاعات ربِّهم، وقيامهم ليلا وجهادهم نهارًا، يأتي أحدهم ويقول: يا رسول الله أسألك الشَّفاعة. وكانوا أي الصَّحابة يتبرَّكون بآثار النَّبيِّ ﷺ كفضلة طعامه وشرابه ووضوئه، فعلىٰ ماذا كانوا يبحثون؟ إنَّهم يبحثون علىٰ البركة، وتلك البركة هي رفع الهِمَّة عن الكون إلىٰ المُكَوِّن، والشُّعور بمعيَّة الله، والمداومة علىٰ الحضور معه، وعدم الغفلة عنه.

وقد أنكر البعض قضية البركة ونفوها، ولكنَّ البركة موجودة حقيقة في الاقتداء بالرُّسل والأنبياء ومن سار علىٰ نهجهم من العلماء العاملين والمُخلصين، ومن أهل الله الأتقياء الذين صَلُحتْ ظواهرهم وسرائرهم، وكلُّ من قصد هؤلاء بصِدق ونيَّة ينال من بركاتهم، ويسري سِرُّهم في قلبه فيمتلئ حبًّا لله، وتصفو نفْسُه من الظُّلمات، وتتطهَّر من الآفات، وتسمو روحه إلىٰ المعالي، ويرتقي في منازل السَّالكين إلىٰ أعلىٰ الدَّرجات.

إنَّ للصَّائم فرحتين يفرحهما، ففرحته الأولىٰ تكون عند الإفطار كما مرَّ بيانه، فمتىٰ تكون الفرحة الثانية؟ إنَّها تكون يوم القيامة حين يلقىٰ الصَّائم ربَّه، وكيف لا يفرح وهو من الصَّائمين القائمين الذين بشَّرهم الله ﷻ في الحديث القُدسيِّ

الذي قال فيه: «**كلُّ عمل ابن آدم له إلاَّ الصِّيام فإنَّه لي وأنا أجزي به...**»[1]، فعندما يرىٰ الصَّائم يوم القيامة صومه الذي صدق فيه لله، وصامه لله، وطهَّر نفسه فيه ممَّا لا يُرضي الله، ألا يفرح عند ذلك اللِّقاء؟ بلىٰ، يفرح، لأنَّه أطاعَ ربَّه وذَكَرَهُ واتَّقاه، وكان في معيَّته، ويلقىٰ سيِّده ومولاه وهو راض عنه، ويتمتَّع بالنَّظر إلىٰ وجهه الكريم مُستغرقًا في مشاهدة جماله، ويغيب عمَّا سواه كما قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23].

فما أشدَّ فرح من كان هذا حاله يوم لقاء الله، يوم تكون وجوه المؤمنين الصَّادقين مضيئة متهلِّلة بما تشاهد من جمال الحقِّ جلَّ جلاله، ومن النَّعيم الدَّائم مِصداقًا لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: 38، 39]، وهكذا يكون فرح المؤمن الصَّائم بربِّه عند لقائه، وأمَّا الذي صام لهواه ولشهواته ولحظوظه وللعادة ولغير ربِّه فبماذا سيفرح؟ إنَّه لا يفرح بأي شيء، لأنَّه محروم والعياذ بالله.

وقد يقول القائل: وكيف أعرف نفسي أنَّني مقبول عند الله في شهر الصِّيام أم أنِّي محروم؟ فنقول: إذا أردتَ أن تعرف ذلك فانظر إلىٰ حالك بعد رمضان، فإن كنتَ بعد الصِّيام عاشقًا محبًّا لربِّك وراغبًا في طاعته، ومَتَّصِفًا بالتَّقوىٰ، ومُلازمًا لمجالس العِلْم والعُلماء ومجالس الذِّكْر والهداية، ومصاحبًا لأهل الصَّلاح والتُّقىٰ، فأنتَ قد حصَّلتَ علىٰ ثمرة الصِّيام، ونلتَ من نفحات ربِّك نصيبًا وافرًا، وَحَمَلَتْكَ العناية للقرب من الله، ولكن إذا رأيتَ نفْسَك بعد رمضان قد عادت إلىٰ عاداتها السَّيِّئة وصفاتها المذمومة، ولم تتطهَّرْ من دسائسها وخبائثها، فقد خسرتَ نفحات رمضان، ولم تأخذْ من الغنيمة نصيبًا، ولم تَنَلْ مغفرة الله ﷻ، لأنَّ علامةَ المغفِرةِ التَّطْهِيرُ، وعلامة ذلك التَّطهير القُرب من الجليل.

لقد أمرنا الله ﷻ بطاعته علىٰ الدَّوام، وليس في شهر رمضان فقط، ولكنَّ الحقَّ ﷻ قال لنا: عظِّموا الطَّاعات في رمضان عسىٰ أنْ تنفحكم نفحة من نفحات

(1) رواه البخاري ومسلم والنَّسائي وغيرهم.

ربِّكم فتخرجوا من رمضان وقد أصلح الله قلوبكم، وملأها محبَّة فيه وإيمانا وتصديقًا به وبنبيِّه ﷺ، وأدامكم علىٰ الطَّاعة، فصارت أيَّامكم كلُّها سعادة، وخرجتم من الصِّيام وقد تحقَّقت التَّقوىٰ في قلوبكم، وصدق فيكم قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]. وفي هذا القَدْر الكفاية، وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله.

obeikandl.com

obeikandl.com